

كتاب
السفير

المارونية السياسية

سيرة ذاتية

المارونية السياسية

سـيرة ذاتيـة



هذه الدراسة

هذه الدراسة تناقش ، للمرة الاولى ، قضية المارونية السياسية التي تشكل المفتاح الرئيسي لفهم تطور السياسة اللبنانية وواقعها .

وقد برزت المارونية السياسية ، مؤخرا ، في البلاد العربية كأحد أبرز معالم العلاقات اللبنانية ـ العربية ، بل كأحد مفاصل الصراعات العربية والدولية في هذه المنطقة .

وتلقي هذه الدراسة ضوءا على جانب مطموس ، حتى الآن ، من جوانب ما سمي خلال القرنين الماضيين ، « المسألة الشرقية » .

ولا بد هنا من التنويه بان ثمة محاولات لصياغة منهج في فهم المارونية السياسية والتعاطي معها ، قام بها المفكر المعروف منح الصلح في اعقاب حوادث ١٩٥٨ ، ثم اغناها بتوضيح الابعاد العربية لها اثر دخول العمل الفدائي الفلسطيني الى لبنان العام ١٩٦٥ ثم العام ١٩٦٨ . وقد

نشر الاستاذ الصلح حول هذه القضية المهمة سلسلة من المقالات والبحوث، في بعض الصحف والمجلات اللبنانية .

وهذه الدراسة التي تصدر عن مركز « السفير » للمعلومات ، تتناول على المنهج نفسه تاريخ المارونية السياسية بمزيد من التحليل والتعميق مع تركيز خاص على الفترة الممتدة بين سنة ١٨٤٠ ونهاية عهد الرئيس سليمان فرنجية سنة ١٩٧٦ .

ومن موقع الحرص على الوحدة الوطنية ، تنير هذه السيرة الذاتية للمارونية السياسية ، للاطراف المعنية ، طريقة التعاطي الموضوعي مع ظاهرة بارزة وقديمة في المشرق العربي .

١ ـ الموارنة : طائفة الكيان

الموارنة شيء ، والمارونية السياسية شيء آخر .

فالمارونية السياسية هي تعاطي بعض الموارنة بالسياسة من منطلق طائفي موجه الى عصبية داخل هذه الطائفة ، وهادف الى تقوية هذه العصبية .

والموارنة مواطنون ابرار ، شأنهم شأن غيرهم من المواطنين من كل الطوائف ، كما ان الطائفية المارونية شر شأنها شأن الطائفيات المسيحية والاسلامية على ارض الوطن .

وتتمتع المارونية السياسية ، اي الطائفية المارونية ، باعجاب خفي من جميع الطائفيات الاخرى في لبنان ، من مسيحية واسلامية .

ذلك ان المارونية السياسية هي الناطقة الجريئة باسم الطائفيات الاخرى ، وهي الحصن الاقوى لهذه الطائفيات ، فما هو مطلب او موقف عند الطائفية المارونية هو كذلك مطلب عند الطائفيات الاخرى الا انه اما مطلب مكبوت او مرجأ .

والسبب في هذه الطليعية في الطائفية المارونية بالنسبة لغيرها من الطائفيات كونها تستند اكثر من غيرها الى عصبية مكونة تاريخيا وجغرافيا اكثر من باقي العصبيات ،وكونها تتجاوز القمة او الطبقة المسيطرة الى القواعد نفسها ، وكونها اخيرا لا تعاني الى حد بعيد الازدواجية بين الولاء للطائفة والولاء للوطن .

لهذا كانت الطائفية المارونية هي « الرائدة » و« الضمانة » تحتمي بها الطائفيات الاخرى وتحميها اما بالمؤازرة العلنية او بالتنسيق او بالمناكفة المحسوبة و المعروفة نتائجها سلفا .

ومن انواع الحمايات التي تحرص الطوائف الاخرى على تقديمها للمارونية السياسية تحريم بحثها او تحليلها ، لانها تشعر انه في دراسة الطائفية الاكثر تطورا وتقدما هدم للنظام الطائفي ، باسره ، لانه في النهاية ، يستند الى عقلية واحدة ومصالح واحدة .

والذي جعل المارونية السياسية سرا مغلقا هو ان جميع الطائفيين من جميع الطوائف يعتبرون انكشافه انكشافا لهم .

ودراسة الطائفة المارونية واجب وضرورة لفهم « المسألة اللبنانية » باطوارها وابعادها المختلفة ، الامر الذي لم يتم حتى الان بالشكل الوافي ، لان الفكر السياسي الوطني رفض في معظم الحالات ان يبذل جهدا كافيا على طريق التعرف مخافة ، ان يحمل التعرف معنى الاعتراف . فالطائفية ظاهرة تخلف ومصلحة طبقية : فماذا يفيد التوغل اكثر في العقل الماروني السياسي وبمؤسساته ؟

والحقيقة انه في كل طائفية محور عقائدي او فكري فيه شيء من التخطي لطبيعة الطائفية العشائرية والطبقية الضيقة ، ففي الطائفية السنية قضية التوازن السياسي التي تشعر السني بانه حين يقول بمطالبه الطائفية انما يطالب بمصلحة للوطن ككل ، وفي الطائفية الشيعية قضية الحرمان التي تشعر الشيعي بانه يتكتل طائفيا حول قضية لاوطنية فقط بل انسانية عميقة ايضا وفيها مصلحة بلده والقيم ، وفي الطائفية الدرزية قضية الحفاظ على الاصالة اللبنانية في وجه التغريب والاغراب ، وهي تعطي الدرزي شعورا بانه يعمل لمصلحة لبنان الاصيل في وجه لبنان المصنوع .

اما الطائفية الارثوذكسية فتطالب للذات بموقع على اساس انها الطائفة

الوحيدة اللاطائفية في غابة الطائفيات ، لذلك فمصلحتها هي مصلحة العدالة .

والطائفية المارونية بوجه خاص لها محور عقائدي وفكري ، فيه شيء من التخطي لطبيعة الطائفية وهذا المحور هو فكرة الكيان ، فالماروني بتعصبه لامتيازات طائفته يمارس عصبية هو يشعر انها عصبية للبنان ، فمن خلال الشعور ان الموارنة للبنان يصبح لبنان ، في لا وعي الماروني في اكثر الاحيان للموارنة ، وهكذا تمثل فكرة الكيان ذلك الارتفاع الكثير او القليل عن الذات المارونية البحتة التي تتحول به الهموم المارونية الى رسالة وطنية .

والكيانية هي نزعة استقلالية ذات حساسية خاصة تجاه العرب وتخوف على الذات من محيط بشري ضخم يعتنق دينا اخر وتعصف به حركات التغيير القومي والاجتماعي .

ان الماروني « العادي » يكون اكثر ما يكون براءة واكثر ما يكون وطنية بالمعنى الذاتي عندما يتكلم عن الكيان او يدافع عن الكيان ، او يموت من اجل الكيان ، ولكنه يكون اقل براءة ووطنية في عين نفسه عندما يسوقه هذا الشعور الكياني بشكل مباشر الى تقبل الضمانة الاجنبية كمقوم اساسي من مقومات وجوده السياسي ، فمهما تكن الاعذار والمبررات لمنطق الضمانة الاجنبية ، فهو يصطدم في اعماق المارونية بنزعة الاستقلال الوطني التي تسكن كل نفس والتي ظهرت وتظهر قوية في بعض المراحل التاريخية عند ابناء الطائفة المارونية ، هذه الطائفة العميقة الجذور المحلية ، الملتصقة بالارض والتراب كأقوى ما يكون الالتصاق ، والمتعلقة شديد التعلق بكل ما يحيط بمهدها الجبلي الاول من معان واعراف وعادات وتقاليد ، وعلى قاعدة هذه النزعة للاستقلال والتعابير المختلفة لها والصيغ المترجمة لها ، كان دائما يقع الخلاف الماروني ـ الماروني ، وكان دائما يوجد بين الموارنة من يرفض رفضا تاما اخضاع الاستقلال الوطني لاي قوة اجنبية .

وترتبط الضمانة الاجنبية التي تبشر بها المارونية السياسية جمهورها بقضية اخرى هي السعي والتمني الدائم لقيام توازن في المنطقة يكون فيه من جهة اسرائيل والغرب ، ومن جهة ثانية العرب « حركة » ودولا ، وهذا التوازن وان كان عند الماروني العادي دفاعيا الا انه عند الماروني السياسي هجومي لأنه من نوع توازن السلاح الذي تعتمده الولايات المتحدة في المنطقة وتعطي به جميع الدول العربية من المحيط الى الخليج اقل مما تعطيه لدولة اسرائيل وحدها .

وهذا الخلاف بين دفاعية الموقف الماروني الشعبي وهجومية موقف المارونية السياسية في موضوع التوازن الاسرائيلي ـ العربي ، من النوع المتفجر في النهاية الذي لا يمكن ان يذهب فيه المواطن الماروني في الاوقات السلمية العادية الى آخر ما تطالبه به المارونية السياسية ، رغم ارتباطه بقضية الضمانات للدفاع عن الكيان .

واذا كان للمارونية السياسية مشكلتها في اقناع الماروني بفكرة الضمان الاجنبي على عكس السهولة التي تقنعه فيها بفكرة الكيان ، فانها تجد صعوبة اخرى باقناع الماروني اقناعا وجدانيا وخاليا من الازدواجية بفكرة الدولة المركبة من وجودين ذي طبيعتين ، وجود ماروني بحت يستقل به الموارنة مائة في المائة ووجود ماروني ـ اسلامي مشترك يمارس فيه الموارنة دور الضابط او المراقب او حتى المهيمن .

فدولة « مالنا لنا وحدنا ، وما لكم لكم ولنا » هي صيغة سياسية وادارية ، بل اجتماعية وحضارية موفقة بالنسبة للمارونية السياسية ولكنها بالنسبة للماروني العادي لا تخلو من ضعف يبعث الشك في نفسه ، ان من حيث العدالة الوطنية او من حيث القابلية للتطبيق . الا ان من اقوى ما تحرك به المارونية السياسية الشعور الماروني العادي ، الشعور بالغربية بكل ما تعني الكلمة من دغدغة بالتفوق الثقافي ، الاقتصادي بل العنصري ، فلبنان

الغربي ـ بمعنى التقدم ـ هدف جذاب للماروني ، وهو في سبيل سحر التقدم هذا مستعد لأن يتخطى الكثير من الروابط الجغرافية والتاريخية والانسانية التي يعرف جيدا في قرارة نفسه عمقها بينه وبين البلاد العربية ، وعلى الاخص سوريا .

فحتى في المانيا وجد من يرى في الغربية عامل نسيان للوجود القومي الموحد ولبنان موجود بالاصل ومنذ عام ١٨٤٠ ليكون نوعا من برلين الغربية تجاه برلين الشرقية . . خصوصا وان انصار لبنان الغربي هذا ليسوا وقفا على جماعة الطائفية المارونية .

من التبسيط غير العلمي القفز عن خصوصية هذه الطائفة اللبنانية . فمن خصوصياتها علاقتها الحميمة بالجبل ، ونوع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة عادة في الجبال ، ثم حياة العزلة المتمادية وشبه الاكتفاء الذاتي ، والتداخل بين هيمنة الاقطاع السياسية والاجتماعية وثروات الاديرة الطائلة وهيمنة الاكليروس الثقافية .

ومن خصوصية الطائفة المارونية انها طائفة شرقية ، بكل معنى الكلمة انما مربوطة بالكنيسة الغربية من خلال الفاتيكان .

ومن خصوصيات الطائفة المارونية ايضا انها موجودة في لبنان ، وغير موجودة بكثافة نسبية الا في لبنان ، مما يوقع التباسا بين المارونية واللبنانية بالنسبة للماروني ، فاذا كان لبنان لها ولغيرها من الطوائف فليس لها الا لبنان بينما لغيرها غير لبنان .

من كل هذه العناصر ، ومن جو الخطر ، اما الآتي من الهجرة والنزوح باعتبار الموارنة قدموا من سوريا ، او من ممارسة التهجير للآخرين باعتبارهم هجروا الشيعة من بعض مناطق الجبل كالبترون وبلاد جبيل وكسروان والمتن ، ومن حياة الراهب تحت السلاح ، تكونت ذاتية لهذه الطائفة شكلت واقعاً اجتماعياً وفكرياً مميزاً ، له مفاهيمه وقيمه ومقاييسه ومشاعره وزواياه في

النظر الى الامور ، والى كل من هو خارج الأطر الجغرافية والطائفية التي يعيش فيها الماروني . والتميز داخل هذه الشروط سمة معروفة في أهل الجبال ، خصوصاً الذين ينتمون الى عرق واحد (كالبربر في شمال افريقيا) او مذهب واحد (كالاباضية في عمان) ، فلكل هذه المجتمعات ذاتيات مميزة تبقى دون ما نفهمه بمصطلح « رابطة وطنية او قومية » ولكنها تزيد قليلاً او كثيراً عما نفهمه بمصطلحي « طائفة » و « مذهب » .

الا ان هذا التمييز الذي تحله الحركات القومية او الصيغ الادارية في الاحوال العادية ، حولته الظروف الدولية والمداخلات الاجنبية الى مشكلة سياسية .

وقد تعاون الانحلال العثماني والاستعمار الغربي على وضع نواة لبنان الحالي في صورة القائمقاميتين ثم متصرفية الجبل . وكان العمود الفقري الذي انشىء حوله الجسم السياسي اللبناني الكياني هو نظام الطوائف الذي اوجدته الدولة العثمانية .

لم يكن كل رعايا الدولة العثمانية منتسبين الى طوائف . بل كان هؤلاء الرعايا فريقين : المسلمون وهم ليسوا طائفة والأخرون وهم طوائف .

والاصل في نظام الطوائف هو ايجاد اوضاع قانونية وضمانات لأصحاب العصبيات غير الحاكمة.

فعندما ولد لبنان الكبير العام ١٩٢٠ اعتبر نظريا ان جميع اللبنانيين منتمون حكماً الى طوائف وجعل الحكم شكلا من أشكال فدرالية الطوائف . لقد ولد في لبنان ١٩٢٠ الادعاء القائل بانه قائم على أساس النظام الطائفي .

والواقع غير ذلك تماماً ، فقد بني لبنان الجديد على المفاهيم نفسها التي قام عليها مجتمع الانحلال العثماني وبدلا من ان يكون المسلمون في حل من

ان يكونوا طائفة ، اصبح الموارنة في حل لأنهم عقائدياً وعملياً اصبحوا العصبية الاساسية في الدولة .

فلبنان السياسي الحالي مشكل من الموارنة والطوائف . كما كانت الدولة العثمانية مشكلة من المسلمين والطوائف .

ان حق المارونية السياسية لا ينبع من العدد ، ولا ينبع بالضرورة من الكفاءة والقدرة ، ولا ينبع في الأكثر من اي خاصية معينة فيها سوى انها (أي المارونية) علة لبنان وروحه وضمان بقائه .

وهكذا فان لبنان الذي جاء رداً على اوضاع سابقة فاسدة ، ونقيضا للدولة العثمانية ، كان في الحقيقة ثأراً منها بالمعنى السيء للثأر ، اي تغيير الجهة المظلومة دون تغيير الظلم من حيث المبدأ ، وبكلام آخر : تحويل من كانوا ذميين بالأمس الى عصبية حاكمة ، ومن كانوا عصبية حاكمة الى ذميين .

وبالتالي : انشاء « دولة عثمانية » من الناقورة الى النهر الكبير تبدلت فيها الادوار رأسا على عقب .

وبين جميع الدعوات التي قامت ضد السلطنة باسم مكافحة التخلف والانحلال في المجتمع الاسلامي والعربي سواء قومية او لا مركزية او اصلاحية اسلامية او اقليمية انفصالية استمر جوهر النظام العثماني حياً وسلماً في دعوة واحدة هي دعوة تحويل متصرفية جبل لبنان الى لبنان الكبير المؤسس على اساس فكرة الوطن الماروني ، فارق جوهري بين الدولة العثمانية المنحلة والكيانية اللبنانية الناشئة هو في انتماء الظاهرة الاخيرة للصعود والتوسع الغربيين .

ففي مرحلة الانبعاث الاوروبي في اواخر القرون الوسطى وفي اعقاب الحروب الصليبية بشكل خاص ، جاءت من قبل الفاتيكان مبادرة ملفتة باتجاه

تغذية الذاتية المارونية التي تحدثنا عنها ، فقد انشأ الفاتيكان عام ١٥٤٣ لجنة خاصة للاهتمام بالموارنة ومدرسة خاصة لإعداد رجال الاكليروس ، الذي برز منهم من ضمن عملية التغريب الحضاري والسياسي رواد في دراسة اللغة العربية وتعليمها .

المؤرخون يعيدون الى ذلك الزمن بداية دعم غربي متواصل للوجود الكياني الماروني في جبل لبنان ، وقد يكون ان يداً دولية رصدت اموالاً لامداد الاكليروس الماروني وبعض مشايخ العائلات بقدرة شرائية مكنت المارونية من شراء الجزء الاكبر من منطقة جبل لبنان التي كانت بالأصل شيعية فتحولت الى املاك مارونية ، وينطبق هذا الكلام على البترون وبلاد جبيل وكسروان بل المتن الى حد بعيد ، ولم تكن القوة العسكرية والدعم السياسي السري فقط هما اللذان برافقان المد الماروني ، بل ايضا ، وبصورة خاصة ، التفوق المالي الآتي من مساندة دولية مما اسس للموارنة في النهاية موطناً واسعاً لا يقتصر على المنطقة الضيقة التي كانت تسمى « لبنان » في شمال لبنان الحالي .

ومن ملاحظة سيرة هذا الامتداد الماروني يتبين انه بدأ مطبوعا بطابع يغلب عليه توغل الكنيسة الغربية في شؤون كنيسة شرقية بالاصل عن طريق مد خطوط ثقافية ثم مساعدات مالية ذات طابع شبه اكليركي ، ولكن مع التنامي الاوروبي العام اخذ هذا الامتداد يستند اكثر فاكثر الى قوى سياسية واقتصادية وعسكرية

وتحول الامير المسلم في الجبل الى ماروني بالعصبية السياسية واحيانا الى ماروني بالمذهب ايضا . . دون ان يعني ذلك اي موقف تنصلي من العروبة كجنس ، وبالعكس كان يعني في الاغلب ، تحسسا بالعروبة ضد الهيمنة التركية .

وبالعودة الى المقارنة بين تواريخ متعددة ذات معنى تتوضح الصورة بشكل كامل ، ففي عام ١٥١٦ بدأ المشرق العربي يكون جزءا من الدولة العثمانية المخيفة لاوروبا ، وفي عام ١٥٤٣ تتشكل في الفاتيكان لجنة خاصة للاهتمام بالموارنة وانشاء مدرسة خاصة فيه لاعداد رجال الاكليروس .

سنة ١٧٩٩ يدخل نابوليون بونابرت الى مصر وتدخل معه سياسة المخاطبة الطائفية الصريحة لأبناء المنطقة ، فنابوليون المسلم - المسيحي كان يطمئن مصر على اسلاميتها بنفس الوقت الذي كان يحرك عند بعض سكان جبل لبنان ذاتيتهم الطائفية الخاصة .

وكان من الطبيعي ان ينتهي التحريك الغربي العنيف للنزعة المارونية اللبنانية بعدة انفجارات طائفية عنيفة تكرس بشكل شبه نهائي تبلور الذاتية المارونية التي وصفناها بالقول انها اكثر من طائفة واقل من امة .

ولو ان اية ذاتية من هذه الذاتيات التي تنشأ في مواقع معينة من العالم نتيجة امتزاج العوامل الجغرافية والحيوية بالمذاهب والاديان خضعت للضغوط المكثفة التي خضعت لها الطائفة المارونية لوصلت الى نفس الانحرافات وربما اكثر ، لان كل ثقل المسألة الشرقية قد القي على كتفيها .

وقد كانت اوروبا في نهاية القرن الماضي محتاجة الى التوسع الاقتصادي ، لانها كانت قد انتقلت من اقتصاد التنافس الحر الى اقتصاد الاحتكار ، فربطت الزراعة في الجبل وخاصة الحرير بمصانعها .

وواضح انه في المرحلة التاريخية نفسها التي برزت فيها ملامح العمل الماروني الهادف الى قيام كيان سياسي خاص في الجبل ، او بشكل اكثر تحديداً ملامح المسألة المارونية التي ادت الى القائمقاميتين ثم المتصرفية ، كانت تظهر في اماكن مختلفة من العالم ظاهرة « الوطن العنصري » المبني على العرق او الدين او التفوق الحضاري ، واذا كانت الصهيونية هي

احدى صور هذه الظاهرة فانها ليست الصورة الوحيدة . ففي افريقيا وروديسيا والجزائر وايرلندة برزت طموحات تأليف كيانات عنصرية او دينية مستقلة .

نفس الدوافع التي كانت وراء تشجيع الغرب لاستقلال ماروني في الجبل ، كانت وراء تشجيع الغرب للحلم الصهيوني في فلسطين .

وتقول محاضر جلسات مجلس الوزراء العثماني انه في احدى جلسات المجلس بحضور السلطان عبدالحميد طرحت قضية مطالبة بعض اليهود الاوروبيين بامتيازات زراعية وادارية في فلسطين ، فرفض السلطان عبدالحميد الطلب وقال : « اخشى اذا نحن اعطينا اليهود بعض الامتيازات في فلسطين ان يخلقوا لنا حالة شبيهة بالحالة السائدة في جبل لبنان ، وكي لا تصبح فلسطين كلبنان علينا ان نرفض الطلب المقدم لنا » .

وهكذا ، نظر السلطان عبدالحميد الى حالتين مختلفتين بعين واحدة كما ينظر الرأسمالي الى الشيوعية والاشتراكية فهما مختلفتان فيما بينهما متفقتان عليه .

٢ـ ١٩٢٠ :
لبنان الكبير

لم تكن المارونية السياسية العام ١٩٢٠ قد بلغت من القوة ما يمكنها من ان تنطق باسم الموارنة . ففي العام ١٩٢٠ وهو نفس العام الذي اعلن فيه لبنان الكبير القي القبض على اكثرية اعضاء مجلس ادارة متصرفية جبل لبنان ، بينما كانوا كما قالت سلطات الانتداب متوجهين الى دمشق للاتفاق مع الشريف فيصل على ان يكون جبل لبنان سنجقا سوريا ، او متوجهين الى دمشق للمطالبة باستقلال لبنان الكامل عن فرنسا . كما قالوا هم في المحاكمة التي اجريت لهم في ما بعد .

وجاء الى المحكمة الاسقف اغناطيوس مبارك ، شاهدا على صدق تمثيل اعضاء مجلس الادارة مجاهرا امام هيئة المحكمة ان المطالب المنسوبة اليهم هي مطالب اللبنانيين جميعا . وقد قارن الناس في ذلك الحين بين موقف هذا الاسقف وموقف البطريرك الياس الحويك الذي نفض يده من المتهمين ، على رغم ان اخاه سعد الله كان واحدا منهم ، ومن المرجح بطبيعة الحال ان يكون هذا الاخ قد اطلع شقيقه البطريرك على الموقف الذي يقفه اعضا مجلس الادارة مما يلقي ظلا على موقف البطريرك نفسه من الفرنسيين ، وهو الذي يصوره التاريخ بانه صاحب المسعى اللبناني الذي اعلنت فرنسا لبنان الكبير على اساسه . والبطريرك كان رئيس الوفد الذي ذهب الى مؤتمر باريس العام ١٩١٩ ، واجتمع بكليمنصو مطالبا بضرورة اعلان لبنان الكبير .

وبدراسة نوعية العناصر المارونية التي تعاونت مع الانتداب الفرنسي نجد ان اغلبها من بيئة «الشوام» في مصر حيث كان النفوذ الفرنسي ذا صولة وجولة ، ومن بيئة المثقفين الذين يعيشون في فرنسا . فمن هذه الاوساط لا من الاوساط المحلية التي يمثلها مجلس الادارة في المتصرفية ، اتخذ الفرنسيون الاعوان والحكام والوزراء في دولة الانتداب الجديد ، فشارل دباس كان يعيش في فرنسا ، واميل اده لم يكن يعيش في فرنسا ومصر فحسب ، بل انه جاء الى لبنان على ظهر اول مدرعة حربية فرنسية ومثلهما كان داود عمون

ونعوم لبكي واوغست اديب وبشارة الخوري والفرد نقاش وغيرهم من الذين جعلهم الانتداب كوادره .

وقد فعل الفرنسيون ذلك لسببين :

الاول : انهؤلاء كانوا اصحاب الصلة المسبقة مع الفرنسيين وجهادهم في سبيل توطيد العلاقة الفرنسية ـ المارونية معروف .

والثاني ان المارونية السياسية في وجهها الايديولوجي كانت تعيش ، بشكل خاص ، بين المثقفين الموارنة الموجودين خارج جبل لبنان ، اما في مصر او في باريس او حتى في الولايات المتحدة حيث كان مهاجرا كمثل الماروني المتعلمن ايوب ثابت . وكان الشباب الموارنة في هذه العواصم يشكلون الجمعيات والنوادي ، مفعمين بروح النهضة وبالايديولوجية السياسية القائلة ببعث الكيان ، وبالضمانة الغربية للبنان الجبل وسوريا . وبينهم حركيون سياسيون على علاقة ببعض المراكز السياسية المؤثرة

وكما ان ايديولوجية المارونية السياسية نشأت وعاشت خارج لبنان ، فان مشروع لبنان الكبير نفسه هو مشروع فرنسي ـ لبناني ـ خارجي ، اكثر مما هو مشروع نابع من افرازات الحركة السياسية الجبلية التقليدية . لقد كان المستشرقون الفرنسيون واوساط الاكليروس الماروني في الفاتيكان قد اجتهدوا كثيرا في ايجاد جذور لما كانوا يسمونه الامة اللبنانية او الامة المارونية كما قال مرة ارنست رينان . وكانت دراسات هؤلاء رحلة تفتيش عن مقومات الوجود اللبناني او الماروني لافرق من الازل الى الابد ، فكان من الطبيعي ان يكون الطلاب الموارنة في فرنسا اول المتعرضين لاثر هذا الجهد العلمي المكثف وبالتالي لأن تعيش فيهم الحماسة الاشد لفكرة لبنان ذي الطابع الماروني ولبنان المتفوق على جواره حضارة والمختلف عنهم عنصرا وصاحب الحق في انشاء دولة متميزة يتحقق فيها ما سبق ان تحقق في الماضي في دولة فخر الدين وبشير الشهابي ، مما كان المستشرقون يؤكدونه في تعاطيهم الذكي والمتميز مع الوقائع التاريخية لتلك العهود المنصرمة ، اذ جعلوا اكثر من

اقطاعي في جبل لبنان بطلا وطنيا (يعرفونه هم انه كذلك) على رغم انه هو شخصيا لم يعرف نفسه بهذه الصفة . والى حد ما كان الماروني في حاجة الى شيء من العملقة لتاريخه خصوصا بعد الضربة التي الحقتها الدولة العثمانية به باقدام جمال باشا العام ١٩١٥ على الغاء استقلال المتصرفية .

هذه المتصرفية التي كان الماروني يحس انها انما خلقت له ، وان كان توزيع مقاعد مجلس ادارتها لم يعط الموارنة الا تمييزا بسيطا عن غيرها من الطوائف الخمس الاخرى في الجبل . فالمتصرف كان يطرح نفسه في اكثر الحالات على انه ماروني وان كان ارمنيا كاثوليكيا او نمسويا . . . وعندما كان يغيب كان الماروني من اعضاء مجلس الادارة هو الذي يقوم بدور وكيل المتصرف ، ويكفي التعمق في فهم ظاهرة ثورة يوسف كرم حتى ندرك كم كان الموارنة يعتبرون شبه الدولة المستقلة في جبل لبنان دولتهم . وكم كان رجال منهم يشعرون انهم اصحاب حق في ادارة شؤونهم فيوسف كرم هو طموح الموارنة لأن يحكموا هم او يشاركوا في الحكم بشكل حاسم .

وبقدرة اقوى دولة عسكرية برية في ذلك الزمن ، ووسط الترحيب الماروني الكامل بفرنسا الصديقة المنقذة واجه الفرنسيون ومعهم بعض اللبنانيين قضية تكبير لبنان الجبل وجعله كيانا قادرا من الناحية الاقتصادية وغير الاقتصادية على ان يلعب دورا مميزا في المشرق ولم يكن تكبير لبنان على النحو الذي تم (من النهر الكبير حتى الناقورة ومن البحر الى المصنع) الاقتراح الوحيد المطروح .

فقد كان هناك رأي يقول بأن الدولة الجديدة يجب بالضرورة ان تشمل جبل لبنان وذلك الجزء من ولاية بيروت القديمة الذي تحتله فرنسا ، اي الساحل والجبل الموازي له من انطاكية الى الناقورة والرأي الذي قدمه اصحاب هذا الاقتراح هو ان الدولة المكونة من جبل لبنان وولاية بيروت ماعدا سوريا الجنوبية(فلسطين المحتلة من قبل الانكليز) تبقى اذا انشئت دولة اقليات

دينية للموارنة فيها اليد الطولى . فالمسلمون السنة لن يكونوا اكثرية في دولة مشكلة على هذا الاساس ، والتوازن فيها ، كما كان يقول اصحاب هذا الاقتراح هو لمصلحة الاقلية الكبيرة والمتطورة اي الموارنة . بيد ان هذا الاقتراح لم يكن هو الفائز والذي فاز هو اقتطاع جزء من ولاية بيروت يمتد من عكار الى الناقورة وجزء من ولاية دمشق معروف بالاقضية الاربعة (راشيا ، حاصبيا ، بعلبك ، ومعلقة زحلة) واضافتها الى جبل لبنان .

هذا هو الاقتراح الذي فاز فقام لبنان الكبير رغم الاحتجاجات المختلفة على الخريطة الجديدة . كان هناك احتجاج آت من الشمال

من منطقة جبال العلويين حيث كان بعض الاهلين يرغب في الوجود داخل الدولة الكبيرة الجديدة . وعلى سبيل المثال قريتان مارونيتان موجودتان الى شمال عكار قدمتا طلبا بالالتحاق بالكيان الجديد على اساس انهما مارونيتان . فاذا كان الكيان الجديد قد خلقته الرغبة في تجميع الموارنة وتقويتهم فلماذا تكونان هما خارج المشروع! على ان الاحتجاجات الاهم والاكثر جدية والتي شغلت الدولة المنتدبة مدة طويلة من الزمن هي الاحتجاجات الاتية من الجزءين المنتزعين من ولايتي بيروت والشام فقد كانت الاقضية الاربعة مشكلة وكان الساحل مشكلة اخرى ونوع الاحتجاج بين الاثنين مختلف . فاهل الاقضية الاربعة ليسوا سوريين بالمعنى الوطني والاصطلاحي السائر في المنطقة فقط بل «شوام» من الناحية القانونية ايضا اي جزء لا يتجزأ من ولاية دمشق . فاعتراضهم على ادخالهم في الكيان الجديد قانوني شرعي فوق ما هو وطني قومي كانت عاصمتهم دمشق وفجأة وجدوا بيروت هي العاصمة .

اما ابناء الساحل (وهو يشمل ايضا جبل عامل اي الجزء الاكبر مما يسمى اليوم بالجنوب) فقد اعترضوا على الاجحاف من منطلق وطني قومي . لم يكن هؤلاء جزءا من ولاية دمشق بالمعنى القانوني ولكنهم كانوا جزءا من

سوريا العربية بالمعنى الوطني والقومي لذلك كان اعتراضهم يشكل من الناحية القانونية احراجا اقل للانتداب من اعتراض الاقضية الاربعة لانهم يطالبون وطنيا وقوميا بان يكونوا داخل دولة واحدة مع سوريا ، ولكن لم يكن لدمشق الحق الشرعي في مطالبة الساحل بان ينضم اليها .

وشكل رفض الساحل للانضمام للدولة المنتدبة مشكلة عملية عنيفة بينما شكل رفض الاقضية الاربعة مشكلة قانونية او شكل لها على الاصح مشكلة بالنسبة لسوريا لأن سوريا استمرت حتى العام ١٩٤٣ ترفض الاعتراف بان الاقضية الاربعة جزء من لبنان .

والمشكلة العملية الناشئة من الساحل مصدرها وجود مدن كبرى وبالتالي وجود شارع وطني معبأ ضد الفرنسيين المحتلين . فطرابلس وصيدا وبيروت كانت منذ البدء واستمرت حتى ١٩٤٣ مراكز تحرك وطني ضد الانتداب الفرنسي على اساس الوحدة السورية والاستقلال الوطني ، كانت طرابلس هي الاكثر عنفا والاكثر جذرية في المعارضة لانها طرابلس الشام ولأنها لم تنعم بما نعمت به بيروت من امتيازات كونها عاصمة للدولة الجديدة فضلا على ان بيروت بتاريخها الكومبرادوري جزء لا يتجزأ من تطلعات الغرب لا في لبنان بل في المشرق العربي كله .

وبالفعل لا بد من التفريق بين الشعب في بيروت والمجتمع فيه . فالمجتمع اي مجموعة المواطنين ذوي الرتب الاجتماعية كان اقل وحدوية من الشعب فيها اي من الناس العاديين وثمة ظاهرة تستحق التسجيل هي ان مفتي بيروت الشيخ مصطفى نجا حضر حفلة الجنرال غورو الشهيرة في قصر الصنوبر التي جرى فيها اعلان دولة لبنان الكبير. كان البطريرك حويك الى يمين الجنرال وكان المفتي نجا الى يساره ، وهذا المشهد لم يعجب جماهير بيروت وقد نطق باسمها في ذلك الحين الشاعر الشعبي عمر الزعني الذي هاجم بساطة المفتي نجا وقبوله من حيث لا يدري بان يكون جزءا من مؤامرة تكبير

استقلال ام انفصال

لبنان الا ان الحضور بذاته كان دليلا على وجود جزء من المجتمع البيروتي لا يمانع بفكرة الدولةالجديدة ومهما فسر البعض عمل المفتي بانه مجرد انصياع لضغط بعض رجال الدين عليه وابرزهم الشيخ المتعاون محمد الكستي فان بعض الاوساط الاسلامية الثرية كانت على ما يظهر تدفع بالمفتي الى المشاركة بحجة التخوف من ان تكون الدولة للمسيحيين وحدهم فان الايجابية تفرض ان يحضر المسلمون السوق من اولها ويتقاسموا الوظائف فلا يشعروا الفرنسيين بانهم اسقطوا انفسهم من الحساب والاهم من ظاهرة اشتراك المفتي في حفلة غورو كان ذلك الاستقبال الفاتر الذي استقبل به بعض وجهاء بيروت شكري باشا الايوبي الدمشقي الذي عينه فيصل حاكما لبيروت فقد اجتمع بعض الوجهاء في منزل عمر بيهم وارسلوا الى فيصل من يقول له ان بيروت ليست فارغة من السكان حتى تستورد حكامها من دمشق ، وقد فضح هذا الموقف انفصالية مكبوتة عند المجتمع البيروتي وان كان هذا المجتمع قد استمر طيلة فترة الانتداب « يحتفل » من خلال مساهمته في مؤتمر الساحل بتذكير سكان الملحقات بانهم مغلوبون على امرهم ومضمومون الى الدولة الجديدة بغير اختيارهم ، الا ان الملاحظ انه مع مرور السنين كانت مقررات مؤتمر الساحل تصبح وطنية قومية بدرجة اقل وانقسامية طائفية بدرجة اكبر .

وهكذا فمشروع تكبير لبنان كان مشروعا مستوردا مصنوعا في الخارج مئة في المئة وكانت المارونية السياسية التي تحمست له قبل غيرها واعطته كادراته هي ايضا مارونية الخارج بالدرجة الاولى وان كان الموارنة على العموم رحبوا بفكرة قيام لبنان الكبير بطبيعة الحال وشاركهم ضمنا ومن دون ضجيج جزء من المجتمع المسلم في بيروت وسائر عواصم الساحل الذي كان يرى بعقليته التجارية ان الوقوف خارجا ساعة عقد الصفقات يبقي الواقف خارجا الى الابد .

استقلال ام انفصال

« الضمانة » في « فرنسا » و « الخطر » من العرب .

تلك الفكرة الاساسية من افكار المارونية السياسية بشرت بها فاقتنع الجزء الاكبر من الجمهور الماروني . ولكن سرعان ما اكتشف الموارنة بالتجربة ان فرنسا لم تأت من اجلهم . بل أتت من اجل نفسها . فلم يطل الوقت حتى قال البطريرك حويك عبارته الشهيرة .

« فرنسا كالشمس تضيء من بعيد ، وتحرق من قريب »

وفوجيء الموارنة بان حلم يوسف كرم بان يكون « الماروني » هو الحاكم لم يتحقق ، فالحاكم الاول كان فرنسيا بالرغم من ترشح الكثيرين لهذا المنصب . وكانت الطريقة التي صرف بها اكبر وجيه ماروني ـ حبيب باشا السعد ـ من المجلس التمثيلي تدعو الى خيبة المارونية . فقد اعفي من مركزه بناء على حيثية بسيطة وحاسمة وغريبة وهي ان الاعفاء تم كي لا يشعر احد في البلاد انه لا غنى عنه » !

واختير شارل دباس الارثوذكسي رئيسا للدولة . فبدأت المارونية السياسية تتشكك في الضمانة الفرنسية للموارنة . وعندما جاء الجنرال العلماني النزعة ساراي الى المفوضية السامية اصطدم بالكرسي البطريركي وهاجم الاكليروس الماروني وكان ذلك مؤثرا بالضرورة في النظرة المارونية للوجود الفرنسي ومهماته في لبنان على الرغم من ان الامر سوي في النهاية

لمصلحة بكركي .

في هذا الجو بدأ بعض الرواد الموارنة ينقدون بعمق هذا الوجود وسياسته اللاعربية بشكل خاص . منهم على سبيل المثال الشيخ عزيز الهاشم العاقوري الاصل ، والمترعرع في مصر كتب كتابا عنوانه : سوريا ، انتقد فيه فكرة الفصل المصطنع بين اجزاء وطن واحد ، فاصدر الفرنسيون قرارا بطرده من القضاء الذي جاء اليه من مهجره المصري .

وكتب الشيخ ادوار الدحداح العام ١٩٢٦ كتابا عنوانه : سياسة لا وجدان . دعا فيه الى ترك سياسة التجزئة اللامعقولة وغير القابلة للتطبيق واقترح بدلا من لبنان الكبير دولة لا مركزية تشمل سوريا ولبنان معا على اساس الرابطة العربية .

وقال البطريرك عريضة لوفد من حزب الاستقلال الجمهوري جاء يطالبه العام ١٩٣٣ بالموافقة على بيان للحزب يقول ان لبنان دولة مستقلة وعربية : ومنذ متى كنت افرنجيا ؟

وما كاد العام ١٩٣٦ يطل حتى كان يوسف السودا نفسه (الذي يقول عنه بشارة الخوري في « حقائق لبنانية » انه كان معلم الجميع في الفكر اللبناني اثناء وجود الرعيل في مصر) قد وصل الى حد الالتقاء مع لبنانيين وطنيين ومسلمين ومستنيرين مسيحيين على انشاء حركة اسمها « حركة الميثاق الوطني اللبناني » تقول بالاستقلال وبالتعاون مع البلاد العربية في حلف واحد .

وقد راج في ذلك الوقت حتى بين موارنة المارونية السياسية رأي يقول ان الضمانة المارونية ليست في فرنسا وانما هي اتفاق اللبنانيين انفسهم على خطة وسياسة بل في اتفاقهم ايضا مع الكتلة الوطنية السورية القائدة العملية للنضال الشعبي السوري، واللبناني الى حد ما، ضد الوجود الانتدابي

الفرنسي .

وظهر من يقول ان الضمانة للمارونية لا يجوز ان تكون حكرا على فرنسا فلماذا لا تكون ايطاليا مثلا هي الضامنة ؟ تلك كانت فكرة الشيخ يوسف الخازن النائب والكاتب والمثقف الماروني البارز كما كانت فكرة النحاة اللبناني المعروف يوسف الحويك .

وبانفجار الحرب العام ١٩٣٩ وبروز الضعف الفرنسي العسكري بلغ شك المارونية السياسية بالضمانة الفرنسية حد قرار البطريرك عريضة بارسال موفد من قبله الى انقرة للاتصال بفون بابن السفير الالماني لدى تركيا وابلاغه ان المارونية ليست مرتبطة ارتباطا عضويا بفرنسا وان الموارنة على استعداد لموالاة المانيا اذا اصدر هتلر بيانا يقول فيه انه يسلم للموارنة بنفس ما يسلم لهم به الفرنسيون ، ويقدم ضمانته بديلا عن الضمانة الفرنسية . وكان الموفد صاحب المهمة التاريخية العام ١٩٤٠ المحامي الشمالي حميد فرنجية .

وعند دخول الانكليز والديغوليين لبنان العام ١٩٤١ ووضوح الارجحية السياسية والعسكرية الانكليزية واعلان كاترو بيانه بالتعهد باستقلال لبنان قوي في الاوساط المارونية شعور الخطر على الذات من الاعتماد المبالغ فيه على الصداقة الفرنسية وحدها . فدعا البطريرك عريضة الى مؤتمر للطوائف اللبنانية في بكركي اعرب فيه الحاضرون واغلبهم من اجواء الكتلة الدستورية عن ايمانهم باستقلال لبنان استقلالا فعليا يمكنه من تقرير مصيره بملء الاختيار ، وبحرية لبنان في التعاقد مع الدول الاجنبية وبسن قوانين دستورية تكفل الحريات الخاصة والعامة ومجلس نواب منتخب انتخابا حرا تتمثل فيه الطوائف تمثيلا عادلا وتسليم الاحكام فعلا الى أبناء الجبل .

وكان بشارة الخوري وكميل شمعون وغيرهما من الساسة الموارنة غير بعيدين عن المنطق الذي يقول : الضمانة في اتفاق المسلم والمسيحي

والضمانة في التفاهم مع العرب . وعلى التأكيد كان للانكليز دورهم في ايصال بعض الزعامات المارونية الى هذه القناعات . فالمعروف عن كميل شمعون بشكل خاص ان علاقته بالانكليز اقدم من سواه وهي تعود الى الايام التي كان فيها الكولونيل فرلونغ قنصلا لبريطانيا في بيروت . ولعل من عناصر التكتل المسيحي السياسي حول السياسي الشاب شعور الموارنة بان « الفتى الاغر » عرف اهمية دور الانكليز قبل دخول الجيوش الحليفة الى لبنان . فلما ذهب بشارة الخوري رئيس الكتلة الدستورية والرئيس شمعون الى مصر بناء على دعوة من النحاس باشا زعيم « الوفد » واجتمع به بحضور السياسي السوري جميل مردم كانت السياسة التي اتفق عليها بين الثلاثة واضحة المعالم :

بشارة الخوري يكون رجل العرب بين الموارنة ، والموارنة يكونون ضد فرنسا ومع السوريين في خندق واحد والاتفاق هو : لبنان بحدوده الحاضرة لا يذهب منها الى سوريا شيء واستقلاله كامل وتعاونه مع العرب ضمن هيئة دولية مشتركة (الجامعة العربية في ما بعد) مسألة محسومة .

وكانت تطورات السياسة الفرنسية الداخلية في الثلاثينات تترك اثرها في طبيعة الانتداب الفرنسي وطبيعة الحركة الوطنية المناهضة له في وقت واحد . ففي الثلاثينات بدأ اليسار الفرنسي يلعب دورا اساسيا في الحكم ، وبدأت فرنسا السياسية في الوطن الام تختلف عن فرنسا الانتدابية الحاكمة في لبنان من خلال عسكرييها وادارييها الاستعماريين . فظهر اتجاه في السياسة الفرنسية للتفاهم مع الوطنيين وتخفيف المضمون الاستعماري الفج للمهمة الانتدابية في سوريا ولبنان . وكانت الحركة الوطنية في هذين القطرين ، وخصوصا في سوريا ، قد اثبتت وجودها واصابت المصالح الفرنسية في الصميم . فخرجت شبه ظافرة من ثورة جبل العرب العام ١٩٢٦ واستحال على الانتداب العام ١٩٣٦ ان ينهي بالترغيب او الترهيب اضرابا شعبيا

شهيرا في دمشق دام ستة اشهر . فاعطى اليسار الفرنسي الدليل على خطأ السياسة الفرنسية في سوريا ولبنان واعطاه الحجة التي استخدمها ضد اليمين الفرنسي . فنشأ من كل ذلك جو سياسي يشجع على الامل بوضع حد للعلاقة الاستعمارية الفرنسية مع بلدان المشرق .

هنا بدأت البذور الجدية الاولى للميثاق الوطني اللبناني .

وارتسمت بغموض في باديء الامر ثم بوضوح ، الروافد المختلفة لهذا الميثاق . كان الرافد الاول هو ارتداد جزء كبير من المارونية السياسية عن فكرة الضمانة الفرنسية على نحو ما تجده في انتقال اشخاص كيوسف السودا من صف الى صف ، وعلى نحو ما تجسد في الكتلة الدستورية برئاسة بشارة الخوري . وكان الرافد الثاني وهو تخلي الحركة الوطنية السورية ممثلة بالكتلة الوطنية عن الاقضية الاربعة واعلانها الاستعداد للقبول بحدود لبنان المرسومة من الانتداب اذا كان في ذلك ما يقنع موارنة لبنان بسلوك السياسة الاستقلالية.فالطلاب الذين كانوا يدرسون الحقوق في دمشق يذكرون ان فارس الخوري احد اعضاء الكتلة البارزين كان يقول لهم : انني من ابناء الكفير قرب حاصبيا واعرف جيدا انني ولدت سوريا شاميا ، ولكنني اقول لكم انه اذا كان اللبنانيون مستعدين للسير ضد فرنسا فانا اول القائلين بان تكون « الكفير » جزءا لا يتجزأ من لبنان .

وكان نجيب الريس يكتب في جريدة « القبس » في دمشق لسان حال الكتلة الوطنية : نحن لسنا على استعداد للتخلي عن الاقضية الاربعة فقط ، بل نحن على استعداد لأن نعطي ميسلون وقبر يوسف العظمة للبنان اذا كان في ذلك ما يشجعه على الاتفاق على سياسة محاربة فرنسا .

اما الرافد الثالث فكان من الوطنيين اللبنانيين المسلمين انفسهم : اذ قامت بينهم فكرة فحواها : لا لتقسيم لبنان نعم للبنان الواحد .

فقد رأى عدد متزايد من الوطنيين اعداء الانتداب في لبنان ان الخيار هو

بين انضمام الاجزاء الملحقة بلبنان الكبير وحدها الى سوريا وبقاء لبنان جزيرة طائفية مستقلة ومحمية من الاجنبي من جهة ، والقبول بلبنان مستقلا ودولة عربية من جهة ثانية .

فالتجارب اقنعت الوطنيين اللبنانيين كما اقنعت الوطنيين السوريين بان الاستمرار في خط المطالبة بالانضمام الى سوريا لا يوصل الى دمج لبنان بسوريا وانما يوصل الى اعادة الوضع الذي كان سائدا ايام المتصرفية ، اي لبنان الصغير المحمي من الغرب وحوله المناطق السورية المحيطة به تعاديه بالضرورة ويعاديها .

وكانت البورجوازية الاسلامية قد نجحت عبر المؤتمرات السياسية المتواصلة في اعطاء فكرة الوحدة مع سوريا طابعا طائفيا ، عاجزا بطبيعته عن اجتذاب المسيحيين لدعوة الوحدة . فالخلط بين الرغبة في الانضمام الى سوريا وغبن السلطات الحاكمة للمسلمين اللبنانيين كان عنوان المتاجرة البورجوازية بقضية الانضمام وتغليبها على فكرة الوحدة ، اذ الوحدة وحدها كانت على المدى البعيد قادرة بان تكون مطلبا وطنيا جامعا ، اما الانضمام فهو شيء مختلف . اذ هو لا يعدو كونه مطلبا طبقيا ـ طائفيا واضحا للمدن الاسلامية التي بترت عن سوقها الاقتصادية وعن الطرف الذي كانت تمارس بينه وبين الغرب دور الوساطة ، وهذا ما عبر عنه زعيم سياسي شمالي بالقول : ان طرابلس تموت اقتصاديا اذا بقيت مفصولة عن سوريا وموصولة بجبل لبنان .

وكانت البورجوازية الاسلامية ، خصوصا في بيروت تقول قولا بالوحدة ولكن عمليا كانت تؤيد من الرؤساء والوزراء من يعلن حرصه على الغاء الغبن الطائفي . فعبد الله بيهم المتعاون مع الانتداب في اعلى المناصب السياسية كان يأتي الى السلطة بقوة الدعم الاسلامي البورجوازي الذي يقدم فكرة المشاركة على فكرة الوحدة بل الانضمام الى سوريا .

لذلك لم يكن من الصعب ان تقتنع الحركة الوطنية في سوريا والحركة الوطنية في لبنان بصيغة العام ١٩٤٣ ولا ترى فيها تراجعا عن فكرة الوحدة العربية التي كان الانتداب واعوانه والبورجوازيون المسلمون قد حولوها من مطلب ذي صفة قومية الى مطلب طائفي لاقاليم معينة من لبنان ككل .

فمقابل اقناع المارونية السياسية بالمشاركة في مطلب الاستقلال السياسي عن فرنسا لم يكن ثمة مانع عند السوريين الوطنيين وعند اللبنانيين الوطنيين من ان يطووا قضية المطالبة بالانضمام بعد ان اصبحت هذه المطالبة حجر عثرة في وجه قبول فرنسا بمطالب الحركة الوطنية السورية ومطالب الحركة الوطنية اللبنانية في وقت واحد .

وهكذا ولد الميثاق الوطني اللبناني . ذلك الرحم الذي انطوى من اليوم الاول لوجوده على جنينين متعاركين منذ ١٩٤٣ حتى اليوم وهما الاستقلال والانفصال .

ففي الوقت الذي فهم فيه المسلمون الميثاق بانه استقلال عن فرنسا ركزت المارونية السياسية على ان ما تم هو جوهريا الانفصال عن سوريا وبالتالي عن العرب .

وفي الجلسة التي عقدتها حكومة الاستقلال الاولى برئاسة رياض الصلح لقراءة البيان الوزاري الاول (الذي يقول بشارة الخوري في كتابه « حقائق لبنانية » بانه الميثاق الوطني) جرى التوقف من قبل بعض الوزراء امام عبارة مركزية كانت متضمنة في صلب البيان الوزاري ، والعبارة هي : لبنان بلد عربي ذو وجه مسيحي ، وبعد نقاش تم تعديل العبارة على الشكل الاتي : لبنان بلد مستقل ذو وجه عربي .

كانت العبارة الاولى تمثل بالضبط العرض العربي اللبناني الوطني على المارونية السياسية وهو ان يكون لبنان دولة عربية كاملة الجندية في قضية

العرب مقابل الاعتراف العربي واللبناني والمحلي بان لبنان مختلف عن غيره بهذا الوجه المسيحي المتميز به عن بقية الاقطار العربية . فقد كانت الحركة الاستقلالية العربية بشكل عام والسورية بشكل خاص واللبنانية الوطنية بشكل اخص قد بدأت منذ فترة تخاطب الموارنة بالقول : استقلوا عن فرنسا وشاركوا في المصير العربي واغرفوا ما شئتم من مكاسب ، بقدر ما تكونون عربا بالمعنى السياسي تسقطونْ اعتراضنا على ما بنيتم حتى الان من مواقع خاصة .

ولكن الغاء العبارة المقترحة اصلا واستبدالها بتعبير اخر هو ان لبنان بلد مستقل ذو وجه عربي يستسيغ كما تكمل العبارة الخير النافع من حضارة الغرب وهذا الالغاء حمل اصرار الموارنة على ابقاء هوية لبنان العربية تحت البحث ولو بالتضحية بالنص الصريح على مسيحية وجه لبنان .

كان البيان الوزاري يتضمن جعل اللغة العربية لغة رسمية وحيدة في لبنان . وكان يعد بتغيير العلم اللبناني الذي هو علم فرنسي في وسطه ارزة . وكان يعتبر الطائفية وصمة عار لا بد من ازالتها ، وكان يقول بالثقافة الوطنية الموحدة وبقانون انتخاب يعكس حقيقة رأي أبناء البلاد . وكان أخيرا يقول وهذا هو جوهر سياسة الميثاق الوطني ان لبنان لن يكون للاستعمار مقرا وممرا وانه وكل البلاد العربية الاخرى على اتفاق بان يبقى لبنان على هذا الاساس بلدا مستقلا سيدا حرا .

والنقطة العملية في تحديد علاقة لبنان بسوريا ، توأمه الوطني والتاريخي ، كانت في اقرار البيان الوزاري بوجود العلاقات شبه الفدرالية بين لبنان وسوريا . فلم ينص البيان الوزاري على الغاء اية مؤسسة من المؤسسات الوحدوية الجامعة بين لبنان وسوريا . كالتشريع الجمركي الواحد والنقد الواحد والجيش الواحد وغيرها من مظاهر وحدة البلدين تحت الانتداب الفرنسي .

ولم تعترض المارونية السياسية في حينها على اي بند من بنود هذا البيان - الميثاق . بل بالعكس فان بيار الجميل كان بين حضور جلسة الثقة على هذا البيان وكان يصفق لعباراته الرئيسية بشكل ظاهر .

ولكن المارونية السياسية تصرفت بعد فترة وجيزة من الزمن على اساس ان الميثاق يقول بالانفصال عن سوريا واقامة دولة مستقلة اولا . والدولة المستقلة تعني في نظرهم تصفية مقومات الوحدة القائمة بين دولتي المشرق كما كان يسميها الاصطلاح الفرنسي المستخدم في تلك الايام . وهذا التحوير الانفصالي لمعنى العام ١٩٤٣ تمسكت به المارونية السياسية عندما ابرم لبنان بروتوكول الاسكندرية العام ١٩٤٤ . ويقول البروتوكول باقامة علاقة فدرالية بين الدول اعضائه ، فاعترضت عليه واعتبرته قيدا على السياسة اللبنانية واعلن البطريرك الماروني عدم ترحيبه بالبروتوكول ووضع يوسف السودا مذكرة مفصلة تبين تناقض البروتوكول المذكور مع سيادة لبنان واستقلاله .

وعندما ذهب هنري فرعون وزير الخارجية في حكومة عبد الحميد كرامي التي حلت محل حكومة الاستقلال ، للتحضير لاعلان الجامعة العربية، عارض بوضوح البنود الاتحادية في البروتوكول ، وضغط لتحويل العلاقة الى مجرد مؤتمر دائم للدول الاعضاء ونجح مع دولة عربية اخرى في نزع الصفة القومية الصريحة للبروتوكول .

وقد سعت المارونية السياسية في الفترة الفاصلة بين قيام الاستقلال وتحقيق الجلاء لتضع لبنان على طريق الانفصال ، فقد كانت ترفض ان يتخذ الاستقلال معنى اخلاء البلاد تماما من الوجود العسكري الفرنسي الا بحصولها وبشكل متنام على قرارات تصفية الوحدة التي كانت قائمة بين سوريا ولبنان . وهكذا لم يتحقق الجلاء في ٣١ كانون الاول ١٩٤٦ الا بعد ان كانت المارونية السياسية قد اطمأنت على ان لبنان سيكون دولة عادية من

حيث علاقاته بالدولة السورية فلا تشريع جمركيا واحدا ولا وحدة نقد ولا مصالح مشتركة .

كما ان المارونية السياسية استغلت تلهف الوطنيين اللبنانيين الى رؤية العلم اللبناني حرا وخروج الجيش الاجنبي من الوطن لتخوض معركة عقائدية كاملة تشمل الاقتصاد والثقافة والادارة وذلك بابقاء دولة الانتداب مستمرة في عهد الاستقلال ، فرئيس الجمهورية هو المفوض السامي والدولة هي كل التراث الذي تركته المفوضية في البلاد عندما كانت حاكمة،من اشخاص ومؤسسات وادارات حكومية .

وفي الاشهر الاولى للاستقلال بل في السنوات الاولى كان المزاج العام للمارونية السياسية هو التأكيد على وجوب وجود دولة في لبنان ، في وجه نزعات الفوضى واللامسؤولية والطائفية في اوساط المسلمين ، وعلى الاخص في اوساط الشارع المسلم في بيروت وطرابلس والمعنى التاريخي لذلك هو مصلحة المارونية السياسية في ابقاء دولة الانتداب محمية من رياح التغيير المفترض ان تحمل معها تبديلات سياسية وادارية للدولة التي اقامها الانتداب بالاستقلال عن ارادة ابناء البلاد ، وصاغها بالشكل المعادي لفئات ومناطق كان يعرف النقص في ولائها له فيتهمها بنقص الولاء للبنان . وولد شعار الاستقرار الذي كان يزاحم الاستقلال في التردد على الشفاه وفي حق التقديس كذلك . فالاستقرار يعني ان تبقى دولة الانتداب ويظل الاستقلال مجرد علم مرفوع احتفاليا على هذه الدولة .

ولكن المارونية السياسية لم تستطع ان تمنع بشكل مطلق دخول رياح التغيير على السياسة اللبنانية . فالسياسة الخارجية تعربت بمعنى انها اصبحت مشاركة في مشاورات الوحدة العربية اولا ثم في بروتوكول الاسكندرية ثم في ميثاق الجامعة العربية .

وعلى الصعيد الدولي استقل لبنان عن فرنسا لا لمصلحة الدولة الاخرى ، انكلترا فقط ، بل لمصلحة اميركا والاتحاد السوفياتي اللذين لعبا في معركة الجلاء دورا لا يقل من حيث الاهمية عن الدور الانكليزي وداخليا طبق مبدأ اعتبار اللغة العربية لغة رسمية وحيدة في البلاد . وفي الجلسات البرلمانية ايام الانتداب كان مسموحا للنواب ان يتكلموا بالفرنسية ولكن عندما اراد الفرد نقاش ان يخطب العام ١٩٤٤ بالفرنسية اعتراضا على مشاركة لبنان في بروتوكول الاسكندرية منعه رئيس الحكومة وانسحب النقاش ولم يعد يسمح منذ ذلك الحين لغير اللسان العربي بالانطلاق تحت قبة مجلس النواب الا ان المارونية السياسية التي كانت تحمي الدولة القديمة تحت شعار الاستقرار ، عرفت كيف تبقى الامور في قبضتها عن طريق مواقع قوية ومعطوف عليها دوليا ، عاونتها على صد الروح الاستقلالية وتصفية الاندفاعة الاستقلالية الاولى التي توحد فيها الى حد ما الاتجاه الشعبي مع سياسة الدولة .

وجاءت الهزيمة العربية العام ١٩٤٨ وقيام اسرائيل ثم جاءت القطيعة الاقتصادية بين سوريا ولبنان تساعدان على اعطاء المارونية السياسية عربيا ودوليا قدرة على الحركة لم تكن لها في السابق .

وكان دافع الثمن المباشر لهزيمة العام ١٩٤٨ هو الجنوب اللبناني صاحب العلاقة الحيوية والعريقة بفلسطين ودافع الثمن المباشر للقطيعة هو والبقاع والشمال .

ولم يكن قد مضى وقت قصير على الاستقلال حين اوصلت المارونية السياسية الى الدولة نظرة الى الشارع الوطني المسلح تعتبره عدواً للقانون والنظام والاستقرار تعبر عنه شخصية « القبضاي » هذه الشخصية المنبعثة من عداء التقاليد الاقطاعية والطائفية لوجود حكم ودولة .

واستطاعت المارونية السياسية أن تمكن في الواقع لصورة في ذهنها عن دولتها ، فهي دولة معادية للعرب أو منفصلة عنهم ، وهي دولة متبنية لنظرة الانتداب كاملة في شؤون التوجيه العقائدي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي ، وهي أخيرا دولة امتيازات منغلقة في وجه الحركة الشعبية الوطنية المساوية في نظر النظام الطائفي الماروني للشغب واضعاف هيبة الدولة وسيادتها واستقلالها .

من بشارة الخوري الى كميل شمعون

عام ١٩٤٣ كان رئيس الجمهورية لا يزال من سكان السراي الصغير في ساحة الشهداء . والناس كانت تعرف حقيقة موازين القوى . لذلك اطلقت على مقر المفوضية (رئاسة الحكومة ووزارة الداخلية الآن) اسم السراي الكبير . وعلى مقر رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزارات اسم السراي الصغير . وطيلة عهد الانتداب لم يستقر تماما العرف الذي يقول : ان رئاسة الجمهورية هي للموارنة . فمن اصل سبعة اشخاص تولوا رئاسة الجمهورية والدولة لا فرق كان الموارنة ثلاثة فقط ، هم حبيب السعد واميل اده والفرد نقاش .

على ان التمييز كان في ان الموارنة الثلاثة كانوا يسمون رؤساء جمهوريات بينما كان يسمى الآخرون ما عدا شارل دباس رؤساء دولة .

وفي عهد الاستقلال تأكد وتثبت العرف بمارونية رئيس الجمهورية . فكان ذلك نوعا من التعويض على المارونية التي خسرت بذهاب فرنسا ضمانتها المفترضة . كما كان ذلك نوعا من الرمز بانه اذا كانت فرنسا قد ذهبت فان المارونية السياسية باقية لا تزول .

وعندما جرى تعديل الدستور في ٨ تشرين الثاني عام ١٩٤٣ جرى الغاء النص على صلاحيات المفوض السامي . ونقلت هذه الصلاحيات الى رئيس الجمهورية وسط الترحيب الشعبي الكامل بالولادة الفعلية للارادة اللبنانية الحرة . ومهما قيل في ايام لبنان الوطنية فان يوم ٨ تشرين يبقى بلا شك اخلد ايام لبنان واحقها بأن يعتبر عيد لبنان الوطني . الا انه لأمر ما اعتمدت

حكومة الاستقلال يوم ٢٢ تشرين الثاني وهو يوم عودة الزعماء المعتقلين من راشيا الى البيوت عيدا للاستقلال .

تعديل الدستور الغى الوجود الفرنسي الدستوري بلا شك . ولكنه في الوقت نفسه سلم المارونية السياسية احد اقوى مواقعها في السياسة اللبنانية ، اي رئاسة الجمهورية .

فرئيس الجمهورية الذي انتقلت اليه بشطبة قلم صلاحيات المفوض السامي فوق صلاحياته الاصلية من غير ان يرافق ذلك اي تغيير اخر في الدستور ، اصبح في الحقيقة والواقع حاكم لبنان لا رئيس جمهوريته . لأنه وريث الحاكم الانتدابي المطلق التصرف لا وريث شارل دباس وسائر عباد الله البسطاء الذين كانوا يسمون رؤساء جمهورية ورؤساء دولة في عهد الانتداب .

وقد فصلت بنود الدستور اللبناني عام ١٩٢٦ والهم المركزي فيها ان يكون الدستور والحكومة الوطنية بمختلف مراتبها واجهة تختفي وراءها آلية سيطرة الانتداب الفرنسي .

لذلك حصرت السلطة في يدي المفوض السامي ورئيس الجمهورية ولم يكن عليهما مقابل ذلك اية مسؤولية .

وكما كانت فرنسا تحكم البلاد من خلال المفوض السامي اصبحت المارونية السياسية هي التي تحكم من خلال صلاحيات رئيس الجمهورية . فرئيس الجمهورية اللبنانية يملك كما صرح في يوم من الايام الملك الحسن الثاني صلاحيات لا يملكها امير المؤمنين في المملكة المغربية اذ يعقد وحده المعاهدات ويعلن وحده الحروب ويحل مجلس النواب ويقيل الوزراء كما فعل سليمان فرنجية مرة بهنري اده .

وحتى عام ١٩٤٩ لم يكن رئيس الجمهورية هو قائد الجيش الاعلى الا انه في تلك السنة اضيفت لصلاحيات الرئيس قيادة الجيش العليا . وكان عبد الله اليافي في ذلك الوقت رئيسا للحكومة ورشيد بيضون وزيرا للدفاع الذي

اكتفى من مقاومة هذا التدبير بتسريب خبره الى الاوساط الاسلامية والمعارضة .

هذا التدبير حسم بشكل كامل الترادف بين رئاسة الجمهورية و « الشرعية » ، لا من الناحية القانونية فحسب بل من الناحية العملية بمعناها العسكري ايضا . فضباط الجبهة اللبنانية على سبيل المثال في السنتين الاخيرتين كانوا يتصرفون « شرعيا » لأنهم كانوا يتلقون التعليمات من شخص رئيس الجمهورية سليمان فرنجية . فلا اهمية لا لرأي رئيس الوزراء ولا حتى لوزير الدفاع . بل لا اهمية لقائد الجيش نفسه . فللشرعية معنى بسيط ومختصر هو : ارادة رئيس الجمهورية .

واذا كان رئيس الجمهورية في اوائل عهد الاستقلال لم يستطع ان يكون من حيث القوة على صورة صلاحياته الدستورية ومثالها بسبب شخصية الرئيسين الاولين اللذين توليا رئاسة الوزارة ـ رياض الصلح وعبد الحميد كرامي ـ فان رئاسة الجمهورية كانت تسير منذ الساعة الاولى للاستقلال باتجاه استعمال صلاحياتها الدستورية . ومات رياض الصلح كما مات عبد الحميد كرامي من قبله بعد ان رأيا رئاسة الجمهورية تتحول الى المركز الاساسي لتوجيه الدولة باسرها . فرئيس الوزراء لم يعد تماما كما في الدستور ،الا احد الوزراء ، كبيرهم اذا شئنا ، لكنه لا يزيد عن ان يكون واحدهم .

وعندما يكون رئيس الوزراء غير ذلك انما يكون بقوة الشارع الوطني المسلم او الارادة العربية العامة في المنطقة .

وقد سأل أحد الاصدقاء رياض الصلح في أحد ادوار صراع سياسي خفي بينه وبين رئيس الجمهورية بشارة الخوري عن سر تجرؤ الرئيس عليه في الفترة الاخيرة ، فقال رياض الصلح « ان نكبة فلسطين قد قصمت ظهري وستضعف أي رئيس حكومة في مواجهة أي رئيس جمهورية »

هذا مع العلم ان طبيعة الحكم في المنطقة العربية ككل قد عززت في انفراد رئيس الجمهورية بالسلطة ، لأن الحكم فردي عسكري أو تيوقراطي ملكي في طول البلاد العربية وعرضها لا يحتل كرسيه الاول سوى نبي أو شبه اله ! وماذا يمكن ان يكون من صلاحيات لرئيس وزارة لبنان في جوار أنظمة من هذا النوع تخشى أن يحرك أي نفوذ كبير لرئيس حكومة في لبنان شهية إنداده في المحيط . أما المارونية السياسية فموقفها من ذلك كله شتم الحكم الفردي والتيوقراطي في البلاد العربية والتشبه به في آن معا . وقد يكون رئيس الجمهورية أحيانا ضعيفا في شخصه ، ولكن ضعفه لا يعني أن الرئاسة تضعف بضعفه أو تقل صلاحياتها ويتقلص دورها ، بل أن العكس هو الصحيح في بعض الحالات : يضعف الرئيس فتقوى الرئاسة ، ويقوى بالتالي تسلط القوى التي تسند هذه الرئاسة وتتعامل معها وتنسج واياها خيوط سياساتها في جميع الحقول ، وتتبادل معها المعلومات والأخبار والأسرار ، وكأن للمارونية السياسية في بعض الاحيان مصلحة في ألا يكبر الرئيس ولا يصبح قادرا على الاستقلال ، حتى البسيط ، عنها .

وتبلغ الرغبة في لجم الرئيس عند المارونية السياسية حد الحرص على مجيء رؤساء وزارات أقوياء الى الحكم ممن يستطيعون ان يفرضوا توازنا معينا معه ، فرياض الصلح وعبد الحميد كرامي وصائب سلام ما كانوا خصوما للقيادات المارونية البارزة ، بل على العكس من ذلك كانت هذه القيادات تلعب لعبة مزدوجة معهم ، ترشحهم للرئاسات وتقاوم نزعاتهم الى الخروج على القواعد التي تريد المارونية السياسية ان تلزم الدولة بها .

وقوة الرئيس تقاس أصلا بالقدرة على الاستقلال عن قيادات المارونية السياسية ، وليس من قبيل الصدفة ان بعض الرؤساء الأقوياء كانوا الأكثر انفتاحا على المسلمين ، فأقوى رؤساء الجمهورية كان بشارة الخوري ومنه شكا حتى أقرب أقربائه ، اخوته وأولاده وشقيق زوجته ميشال شيحا ، واتهموه بأنه يبالغ في مراعاة المسلمين ، وهنا لا بد من التفريق بين الانفتاح

على المسلمين والانفتاح على اقوياء المسلمين . وبشارة الخوري كان منفتحا على المسلمين اي على مطالبهم السياسية . وهذه كانت ميزته الأساسية على غيره ممن تولوا الرئاسة .

كانت الدستورية وهي الحزبية المارونية الجبلية المنفتحة التي اعتمد عليها بشارة الخوري في حياته السياسية قبل وصوله الى الحكم وبعد وصوله ، تنطوي على ازدواجية ملفتة للنظر . فهي منفتحة في السياسة فقط ، في مبدأ الانفتاح على التعايش الاسلامي ـ المسيحي وفي مبدأ التعاون العربي وخصوصا في مبدأ الاستقلال السياسي القانوني ، ولكن الدستورية كانت بالمقابل تعوض امام الموارنة عن هذه السياسة بالالتزام الايديولوجي الدقيق في كل ما هو نظريات وعقائد لبنانية صميمة ، وبالالتزام بمصلحة المارونية السياسية في الثقافة وفي الاقتصاد وفي تعزيز المقامات الدينية المارونية . فبقدر ما كان بشارة الخوري بعيدا عن فرنسا بالقياس الى اميل اده ومتعاونا مع العرب ، كان افضل منه صلة بالاكليروس الماروني ، وكان أجود علاقة مع الجزويت وأوثق صلة بالقوى المالية التجارية الكومبرادورية في مدينة بيروت ، وكان الى جانبه ميشال شيحا ينظر في الثقافة والاقتصاد ويعظ في القيم الروحية كما لم يفعل احد من أعوان اميل اده . وكان الى جانبه ايضا الشاب النابه شارل حلو يطوي الوجه السياسي الاستقلالي الصريح على ادق توجيه ماروني في كل ما عدا السياسة . فجمعية حوض البحر الأبيض المتوسط وابرز اشخاصها ميشال شيحا وشارل مالك كانت اقرب من حيث العصبية السياسية الى الدستورية منها الى اي جهة سياسية مارونية اخرى ، وفي عهد بشارة الخوري تمت على الصعيد الاقتصادي الردة عن كل التدابير ذات العلاقة بالاقتصاد الموجه ، التي اقتضتها ظروف الحرب العالمية الثانية . وفي عهده استمرت العلاقات الاقتصادية مع فرنسا على حالها كما كانت في فترة الانتداب ، وفي عهده ايضا استمرت الروابط الثقافية بفرنسا على وجه خاص .

وكان من المفارقات ان حكومات الاستقلال لم تتردد في ان تعتمد فؤاد أفرام البستاني الخصم السياسي للدستورية في دير القمر عماداً توجيهيا للثقافة في لبنان . كما عينت شارل مالك سفيرا للبنان في الولايات المتحدة . ويوسف السودا سفيرا في البرازيل يقيم هناك امبراطورية لبنان المغترب وكل هؤلاء يمثلون في الثقافة والفكر العقائدي عكس ما تدعيه بل تمارسه « الدستورية » في السياسة .

ووجه بشارة الخوري من اليوم الأول لولايته حتى الساعة الأخيرة بمقاومة مارونية مستمرة وعنيدة متحدرة من الصراع الجبلي القديم الأدوي - الخوري . وكان اميل اده ثم ريمون اده نواة عصب المعارضة العنيفة لبشارة الخوري . وقد سبق « الكتلويون الوطنيون » غيرهم في الاشارة الى « انحرافات » بشارة الخوري السياسية الخارجية والداخلية ، فانحرافاته الخارجية كانت في استقلاليته وتخليه عن فكرة الضمانة الفرنسية وتعاونه مع الدول العربية أما انحرافاته الداخلية فهي كبته للحريات العامة وتعطيل الصحافة وتزوير الانتخابات في ٢٥ ايار ١٩٤٧ من اجل التجديد لشخصه ثم الفساد والعشائرية في بطانته .

وقد انفجرت في نيسان ١٩٤٤ شبه حركة انقلابية مسلحة بمناسبة فوز المرشح الزغرتاوي يوسف كرم في انتخابات فرعية لمقعد نيابي في الشمال اذ حاول متظاهرون ناقمون على مبدأ الاستقلال بينهم مسرحون من الجيش الفرنسي ان يستولوا بالسلاح على البرلمان ويرفعوا العلم اللبناني القديم فوقه فاحبطت بطولة بعض الاستقلاليين المحاولة وخرج الاستقلال من الامتحان دون ان تتمكن المارونية السياسية من دعم هذه الحركة في مواجهة وهج الاستقلال في نفوس اكثرية اللبنانيين ومن بينهم قطاع واسع جداً من الموارنة .

وقد بقيت « الأدية » صوتا ضعيفا وعاجزا عندما كانت وحدها في فترة الاستقلال الأولى . ولكنها سرعان ما استقوت بانضمام مطران بيروت

القوي اغناطيوس مبارك الى خطها ، وانتعشت بظهور معارضة اسلامية ارثوذكسية لحكم بشارة الخوري ، قوامها عبد الحميد كرامي وعمر بيهم وعمر الداعوق وحبيب طراد وغيرهم من اصحاب مذكرة الاصلاح الشهيرة التي قدمت للشيخ بشارة الخوري ، وكان بين الموقعين عليها كمال جنبلاط الزعيم الشوفي الشاب ومن المتعاطفين معها كميل شمعون الذي لم تمنعه وظيفته كسفير في لندن من ان يكون احد الاخطار البارزة على رئاسة بشارة الخوري . فكميل شمعون اعتبر تعيينه سفيرا نفيا له من قبل بشارة الخوري الطامع في التجديد لنفسه بدلا من توريث شمعون لرئاسة الجمهورية وهو زميله القديم في الكتلة الدستورية وأحد وجوهها الانتخابية الجذابة في جبل لبنان .

إلا ان المعارضة التي اخافت بشارة الخوري اكثر من سواها هي المعارضة التي تشكلت من الجبهة الوطنية الاشتراكية وهي بالأصل تعاون انتخابي شوفي ضم كمال جنبلاط وكميل شمعون وغسان تويني وانور الخطيب واميل البستاني وعبد الله الحاج . فهؤلاء كانوا الاقدر على مخاطبة حس الجماهير بضرورة بناء دولة حديثة تتخلص من التقليدية المغرقة التي اتسم بها عهد بشارة الخوري . وعندما فاز بيار اده في انتخابات المتن الفرعية على بيار الجميل المدعوم من بشارة الخوري كان ذلك صدمة للعهد . كما كان انفصال حميد فرنجية عن بشارة الخوري صدمة اخرى هيأت جو الثورة البيضاء التي انتهت باستقالة بشارة الخوري بعد ان انضمت اليها الهيئات الاسلامية البيروتية فأمكن قيام اضراب شعبي ضد حكم بشارة الخوري في بيروت .

وكان حميد فرنجية أقرب المرشحين لخلافة بشارة الخوري ، وكانت هناك امكانية اخرى لفؤاد شهاب . إلا إن وضوح سياسة حميد تجاه جميع الفرقاء أبعده عن المركز الرسمي الأول ليبقى السياسي اللبناني الأول في المنزلة المعنوية . وفي ما بعد ، إبتداء من منتصف الخمسينات أصبح رئيس لجنة الاتصال الشعبي ، وهي لجنة عربية شاملة كانت تشكل شبه جامعة شعبية

عربية ، لعب فيها فرنجية دور الزعيم العربي فأكمل هذا الدور إطلالة حميد الكريمة على السياسة اللبنانية والعربية كرئيس لوفد الجلاء الذي ضم رياض الصلح ويوسف سالم العام ١٩٤٦ .

كانت المارونية السياسية مستفيدة من عهد بشارة الخوري ومن معارضته ايضا ، كانت مستفيدة من بشارة الخوري في ما قدمه الرجل من حرص على استمرار دولة الانتداب في كل مرافقها وفي كل خطوطها الاقتصادية والثقافية وكانت مشاركة له بل موحية وملهمة ومنسقة في كل هذه الميادين . فوق ذلك استطاعت المارونية السياسية ان تستمر سياسيا في خط المعارضة له . فبرزت بوجه المصلح الديمقراطي الغيور على المبادىء والقيم الليبرالية . خرجت المارونية باختصار في آخر عهد بشارة الخوري مصلحا سياسيا يتمثل بالموارنة المعترضين وغانما اقتصاديا وثقافيا من خلال المشاركة في المحافظة مع بشارة الخوري على استمرار دولة الانتداب في ظل الاستقلال .

وعندما تسلم كميل شمعون رئاسة الجمهورية ، تسلمها بقوة مد شعبي حقيقي لعب فيه السياسي المتنور والجريء كمال جنبلاط دورا اساسيا . واستفاد هذا المد من النفرة المسيحية من عملية تعديل الدستور التي بموجبها صار بالامكان التجديد لبشارة الخوري فتعديل الدستور مس الحس المسيحي الماروني المتخوف على الشرعية ، والحريص على عدم خلق سابقة في موضوع المساس بالدستور . كما استفاد من شوق الجماهير لما يجب ان تكون عليه صورة الدولة المستقلة وسقوط هذه الأحلام اثناء ولاية بشارة الخوري وعجزه الموضوعي والذاتي عن تلبية كل الاحلام الشعبية الاستقلالية .

بدأ كميل شمعون عهده وجها لبنانيا مارونيا محبوبا في الجبل ، ووطنيا عربيا واسع الشعبية في سائر مناطق لبنان بل في البلاد العربية عموما ، حيث كان قد بنى لنفسه رصيدا كبيرا من العمل العربي لقضية فلسطين فكان عام

١٩٤٦ رئيسا للمؤتمر الشعبي العربي في القدس وهو تشكيلة شبيهة مع الفوارق ، بـ « الجبهة العربية المشاركة للثورة الفلسطينية » هذه الأيام . كما كان اثناء سفارته في لندن متحركا في الأوساط العربية والدولية باستمرار . واثناء طرح موضوع التقسيم في هيئة الامم كان المتكلم باسم الوفود العربية كما حصل لسليمان فرنجية في ما بعد .

وعلى اثر هزيمة الـ ١٩٤٨ وقف في مجلس النواب يندد بالتخاذل اللبناني والعربي ويقول لرياض الصلح :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال

وهو البيت الذي قيل ان أم آخر ملوك الاندلس العربية خاطبت ابنها الملك به . وقد أجابه يومذاك رياض الصلح غامزا من عروبة كميل شمعون المتطرفة بقوله :

اذا اشتبكت دموع في خدود
تبين من بكى ممن تباكى .

ولكن كلام رياض الصلح كان ضعيف الصدى في حينه . لأن الناس كانت تعتبر كميل شمعون حتى منتصف عهده من الباكين الصادقين على الحظ العربي العاثر مع الصهيونية والاستعمار . ولم تكن تعتبره من المتباكين .

وكان لكميل شمعون عندما تولى رئاسة الجمهورية ، عام ١٩٥٢ بالاضافة الى وجهه العربي الذي اغلق في وجه منافسه حميد فرنجية اثناء انتخابات رئاسة الجمهورية ابواب التأييد الاسلامي النيابي ، كان لكميل شمعون ايضا وجه الزعيم الشعبي الرياضي والديمقراطي ، المتواضع ، لذلك حرص في اول خطاب له على القول انه سيحرر الرئاسة من مظاهر الفخفخة الفارغة وهي كلمة ذهبت عميقا في نفوس الجماهير الآخذة على بشارة الخوري مظاهر الابهة حتى حدود الطمع بالامارة .

فقد عرف بشارة الخوري كيف يستغل ذهاب رؤساء الحكومات الاقوياء وعلى الأخص رياض الصلح وعبد الحميد كرامي ليحيط نفسه بأبهة منقولة عن ذاكرته لما كان عليه المتصرف العثماني في جبل لبنان . فالواضح ان بشارة الخوري كان يعتبر انه وان كان قد اصبح رئيسا للجمهورية الا انه لم يلحق من حيث الجاه والابهة متصرف جبل لبنان . وحرقته على ذلك ظاهرة ومستغربة في وقت واحد في الجزء الأول من كتابه « حقائق لبنانية » .

وكان لهذه الشعبية في تصرفات شمعون وسلوكه من الجاذبية الشعبية حد ان احد السياسيين التفت الى قائد الجيش فؤاد شهاب في قصر بيت الدين معلقا على الطريقة الرياضية المحببة التي كان بها شمعون يحيي الحرس المجتمع لاستقباله : انظر يا جنرال ما اكثر تواضع هذا الرئيس وما ابعده عن فخفخة الرئيس السابق . فابتسم الجنرال الشكاك المطروح منذ ذلك الحين مرشحا للرئاسة وقال بالفرنسية : Ca VIENDRA— Ca Viendra اي لا تتعجل الامور ايها الصديق . فالفخفخة ربما كانت آتية في الطريق ، وبالفعل لم يطل الأمر حتى ظهرت على كميل شمعون ظواهر الانفراد في الحكم : فلما زارته الجبهة الوطنية الاشتراكية ومعها نص البرنامج الذي وضعته وهو عضو فيها اخذ البرنامج من يد كمال جنبلاط وقال له : انا رئيس جمهورية الجميع . وانا لست عضوا في الجبهة الوطنية الاشتراكية وعلاقتي بهذا البرنامج كعلاقة اي لبناني من خصومنا بالأمس .

ولانفراد شمعون السياسي قاعدة موضوعية هي قوة المارونية السياسية في لبنان . فحتى مجيء كميل شمعون كان ينقص المارونية شيء هام وهو ان تطل بملامحها كوجه سياسي للبنان . فكأن المارونية السياسية كانت طيلة عهد بشارة الخوري مؤسسة تهريب للمكاسب الاقتصادية والثقافية ولم تتمتع بعزة القول : انا لبنان السياسي ايضا . ذلك انها متهمة بأنها أخذت الاستقلال غصبا عنها وان ممثلها السياسي الحقيقي اي اميل اده بقي خارج الرئاسة بل مطرودا من مجلس النواب بتهمة الجمع بين وظيفتين : وظيفة

النائب ووظيفة اخرى قبل ان يأخذها من المندوب السامي « هيللو » عندما كان رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة وأخرون معتقلين في راشيا . اما الوظيفة فهي رئاسة الدولة التي لم تدم الا فترة قصيرة هي فترة بقاء هؤلاء في السجن .

كانت المارونية السياسية عندما وصل كميل شمعون الى الرئاسة قد اكملت هذا النقص ايضا . اذ استفادت من معارضة اده وشمعون وحميد فرنجية لرئيس الجمهورية واصبحت مصلحة سياسية ومرادفة للبرلمانية والديمقراطية وانتقاد الفساد والعشائر الحاكمة ، فاليوم لم يعد شيء يمنعها من ان تلعب دورها كاملا متخلية من اي عقدة نقص . وببساطة اعتمد كميل شمعون هذه المارونية السياسية القوية فعلا بمواقعها والمقبولة وجها بمعارضتها للحكم السابق . والوصف الاقرب منالا لعهد كميل شمعون هو القول انه العهد الذي عاشت فيه المارونية السياسية حرية المظاهر والحقائق معا . ولعل في ذلك سر الزعامة الشمعونية التي بقيت مستمرة حتى يومنا هذا . فشمعون مثل بالنسبة للماروني السياسي عهد تمتع الماروني بتحقيق ذاته . قال كل ما يعتقد في السياسة الخارجية والداخلية وعادى من يشاء وصادق من يشاء . وقال لأكبر رأس في البلاد العربية اي عبد الناصر : انا هنا . بحسب التعبير الذي لخص به صائب سلام غايته من قيادة ثورة ١٩٥٨ . فقد سأله احد الصحفيين المصريين لماذا ثرتم على شمعون فأجابه صائب سلام : لسبب واحد هو : نحن هنا والواقع ان شمعون لا صائب سلام او غيره من المعارضين كان وحده . . « هناك » .

اتقن شمعون كما لم يتقن سياسي ماروني آخر فن طرح المارونية السياسية على الغرب كحليف عضوي وكرأسمال لا يجوز التفريط فيه بأي حال من الأحوال . لم يشبهه في هذا الموضوع الا آباء الصهيونية ومؤسسو اسرائيل . فوحدهم هؤلاء بزوا شمعون في اتقان الطرح . وعلى كل فلهم فضل السبق في هذا المجال .

الفرق بين كميل شمعون واي سياسي عربي آخر متعاون مع الغرب انه لم يقل للغرب : ليس لنا غيركم . بل قال له : ليس لكم غيرنا . وقالها لا بالكلام بالفعل ، بالمهارة ، بتجميع الطائفة وراءه ، بتحلله الكامل من موضوع الوسيلة والغاية . اكتفى من الملائكية بشيء واحد هو الزواج من بروتستانتية بنت بيت عريق هي زلفا تابت . . وتفرغ للشيطانية في كل ما عدا ذلك .

كشخص عاش ايضا حريته الكاملة ، كما كمال جنبلاط عاش هو الآخر حرا ولكن بشكل آخر ، ولعل هذا من اسرار العداء بين الرجلين .

لم يذهب كميل شمعون الى قداس ، ترك القداديس لبشارة الخوري وفؤاد شهاب وشارل حلو وغيرهم من اتقياء الخوف السياسي من الموارنة .

شتم الاكليروس ، سخر من البطاركة ، سب قائد الجيش وأفراده ، كسب ووهب ، لم يعمل إلا اربعة ايام في الأسبوع والباقي للصيد ، وبعد رئاسة جمهورية بارزة لم يحرم نفسه من الشعور بأنه شاب يتولى وزارة ، ومن ترشيح ذاته بشكل دائم للوزارة ، ويتعجب منه زميله في « الجبهة اللبنانية » ، الشيخ بيار الجميل كيف لا يقبل ان يعقد معه صفقة فيأتي دوري او داني مع امين او بشير فيجيبه كميل شمعون : نحن شباب اكثر منهم ، وعندما نموت فليخلفونا .

هذا النوع من التصرف كأنه يمثل عند المارونية السياسية الحرية التي شعرتها معه دائما . فأصبح حتى من خلال الخروج على المألوف رمزها الحقيقي في شعورها الداخلي بأنها في مطالبها الداخلية والخارجية خارجة عن المألوف هي الأخرى .

فأمين الريحاني لخص موقف المارونية السياسية بعبارة جارحة في واقعيتها ، قال : « رجلك على رأسي يا رجل ورجلي على رأس ابن بلدي » . ومثل هذا الموقف لا يمكن ان يمثل اخلاقية كاملة . فان تكون مارونيا سياسيا يعني قرارا منذ البدء بان تستعبد آخر بثمن ان يستعبدك آخر .

كميل شمعون وحوادث ١٩٥٨

عندما كان شمعون في الحكم وعلى التدقيق منذ العام ١٩٥٦ بدأ في الحياة العربية شيء جديد كليا ، جديد في النوع لا في الدرجة ، وهو ان العرب للمرة الاولى في العصر الحديث بدأوا يعيشون تاريخا واحدا فوحدة التاريخ العربي اصبحت واقعا.لم يعد هناك حدث يحصل في الجزائر ولا يؤثر الا في الجزائر ، ولم يعد هناك حادث يقع في العراق ولا يؤثر في غير العراق ولم يعد هناك حادث يحصل في اليمن ، ولا يترك اثره في كل بقاع العرب ، لم تعد هناك تواريخ كما كان في الماضي بل اصبح هناك تاريخ واحد فالذي يحدث في مكان كأنه حدث في كل مكان في ارض العرب .

قبل العام ١٩٥٦ كان يوجد بين المناضلين والمفكرين العرب من يقول بوحدة القضية العربية ووحدة النضال العربي وكانت هناك طلائع تعيش هذه الوحدة في تصرفاتها بل في تنظيماتها الحزبية لكن الناس بصورة عامة كانوا يصنعون تاريخهم اقليميا .

وشعورا من الغرب بجدية الخطر الآتي من البلاد العربية على مصالحه الاقتصادية فيها وعلى مصالحه الاقتصادية في اوروبا وعلى مواقعه ومواقع الاشخاص والفئات والطبقات المتعاونة معه تقليديا طرح عددا من المشاريع منها حلف بغداد ومنها مشروع ايزنهاور وغايته تقسيم البلاد العربية وضرب التيار القيادي داخل النهضة العربية ورد المنطقة العربية الى تواريخها الاقليمية وحيث يمكن الى ثقافاتها وحضاراتها وطوائفها ومذاهبها وعناصرها المختلفة وبدأ الغرب ينظر الى لبنان كموقع اساسي يمكن استخدامه ضد تيار

الوحدة العربية انطلاقامن المركز الممتاز الذي تتمتع به فيه الطائفة المارونية ،
وكان دور شمعون ان يمثل بالنسبة للغرب ثورة مضادة في وجه الحركة
العربية وكان دوره بالنسبة للمارونية السياسية ان يحقق لها طموحها بالاستيلاء
على كل الدولة اللبنانية فهو كان يقول للموأرنة : هذه فرصتنا ولن يأتي يوم
نأخذ من الغرب ما نشاء كهذا اليوم . وكان يقول للغرب انه ليس له في
العالم اناس مستعدون ان يعطوا دمهم لقضيته غير الموارنة . ونجح تحريك
المارونية السياسية في القضاء على وحدة مصر وسوريا ففي لبنان لا في دمشق
سقطت الجمهورية العربية المتحدة اذ استطاع النظام اللبناني بالازدهار
الاقتصادي الذي فيه ان يقضي على سحر الوحدة في عيون السوريين كما
استطاع النظام اللبناني بالحرية الليبرالية التي فيه ان يدل على بعض النقص
في النظام الجمهوري المتحد فضلا عن تحول لبنان الى مورد للافكار والاراء
والنشاطات المعادية للجمهورية .

والذي حصل في النهاية هو ان لبنان استطاع ان يستولد من احشاء
الجمهورية العربية المتحدة لبنانا اسمه سوريا . اذ بعد الانفصال لم يعد يوجد
اي اختلاف نوعي بينه وبينها . فسوريا الانفصال نسخة اخرى عن لبنان
سنية - علوية - درزية - مسيحية - اقليميوها صريحو الاقليمية وقوميوها
مشككون .

ومنذ ذلك الوقت والانعزالية اللبنانية حركة هجومية غايتها نشر النموذج
اللبناني في البلاد العربية ففي كل بلد عربي بلا استثناء مظاهر وحقائق
لبنانية بالمعنى الذي تفهم فيه المارونية السياسية اللبنانية ، وهناك بعض
الدول العربية - في الخليج مثلا - تكاد تكون لبنانية اكثر من لبنان نفسه .
كانت لبننة العالم العربي هي الرد الاكثر جذرية على حلم عبد الناصر
بتحويل التاريخ العربي الواحد الى دولة عربية واحدة ، وفي وقت ما ظهر
كما لو في العالم العربي حركتان : حركة عبد الناصر وحركة الانعزال
اللبناني .

وجدت اسرائيل لتكون هي الرد على النهوض العربي وعلى الحركة
التاريخية للوحدة العربية بشكل محدد لكن اسرائيل غير عربية ، وهي
بصفتها هذه غير قابلة للترجمة من العبرية الى العربية فمن خلال لبنان
الطائفي اصبحت الاقليات في العالم العربي اكثر قدرة على تفهم النموذج
الاسرائيلي . تفهم منطقه تفهم دوافع نشأته وتفهم تركيبه ، وكأن المارونية
اللبنانية ليست بطلة للاقليات في العالم العربي بقدر ما هي معبر غير ارادي
لهذه الاقليات الى البطل الحقيقي ، الى النموذج الاكمل الى اسرائيل ، فلو
بقيت اسرائيل مئات السنين في البلاد العربية وانفتحت لها اسواق التعامل مع
العرب لظلت عاجزة مع ذلك عن ان تدخل عقول العرب كما هي تدخلها من
خلال الترجمة اللبنانية لها .

كان لا بد ان يقوم الى جانب اسرائيل شيء عربي مشابه لاسرائيل لكي
تغطى اسرائيل مفعولها التاريخي ككيان قام في الاصل لمكافحة حركة الوحدة
العربية . وفي لبنان في عهد عبد الناصر تحقق بالسلاح الشيء الجديد
في العالم العربي اي الشيء النقيض لمبدأ الوحدة العربية والاكمل في
التناقض معه . . وهو المارونية السياسية في لبنان التي طمحت من خلال
كميل شمعون لأن تخلق نموذجا معاديا للعروبة وتعمم هذا النموذج في العالم
العربي .

نشبت ثورة ١٩٥٨ وشمعون في وضع يشابه اوضاع الملوك الذين ارادوا
تأسيس ملكهم على الحق الالهي فاصطدموا بذلك بكل زعماء الاقطاع
فانتخابات العام ١٩٥٧ دحرجت كثيرا من الرؤوس الاقطاعية التي كانت
المعاهدات المعقودة بينها والمواثيق المنسقة للعلاقات بينها تسمى الوحدات
الوطنية ومشاريع الوفاق بين الطوائف واهم هذه الرؤوس هو رأس كمال
جنبلاط الذي كانت زعامته وزعامة بيته من قبله وبعده امارة بكل معنى
الكلمة ، وقد يكون البيت الجنبلاطي هو آخر امارة في لبنان الحالي . ومن

الرؤوس شبه الاميرية التي سقطت احمد الاسعد زعيم جبل عامل الاول فمنذ بداية الاربعينات وهو رأس اللائحة الانتخابية الظافرة لمحافظة الجنوب في اكثر من دورة انتخابية . ومن الرؤوس الكبيرة التي سقطت ايضا وسط ضجيج شارع العاصمة اللبنانية الاولى عبد الله اليافي وصائب سلام الزعيمان المسلمان السنيان اللذان كانا باستقالتهما من حكومة الرأسين على اثر اجتماع الملوك والرؤساء العرب في بيروت لتقرير الموقف من العدوان قد فتحا المعركة الداخلية العنيفة في وجه شمعون ، وكانت المعركة الوطنية العنيفة ضد مشروع حلف بغداد الذي كان كميل شمعون الصديق الاول في المنطقة لابطاله الهاشميين في العراق والاردن . وكان كمال جنبلاط قد بدأ يلعب دوره السياسي كوطني ملتزم بعد ان كان قد ساهم في ايصال شمعون الى رئاسة الجمهورية بمعارضة يغلب فيها الطابع العصري على الطابع الوطني التقدمي ، اذ كان من زملائه في الجبهة الاشتراكية الوطنية اميل البستاني وغسان تويني وعبد الله الحاج وانور الخطيب ، وبشكل ما بيار اده وكلهم من السياسيين الذين ينطبق عليهم وصف « العصريين » .

وفي معركة جنبلاط ابتداء من العام ١٩٥٤ ظهرت تلك البذرة الشعبية التقدمية التي ستعود وتنمو على يد جنبلاط مع ذهاب حكم فؤاد شهاب وخصوصا مع بداية التحالف بين المقاومة الفلسطينية والاحزاب الوطنية والتقدمية . لكن المعركة التي كانت تقودها الاحزاب والقوى الوطنية الشابة ضد الاحلاف لم تكن من الحجم السياسي في لبنان الى الحد الذي يمكن اعتباره مقدمات لثورة ١٩٥٨ فثورة ١٩٥٨ هي بنت الموجة الجديدة التي انطلقت من مصر على اثر العدوان الثلاثي والمقاومة المصرية لهذا العدوان ووصول هذه الموجة الى سوريا والحلف الذي انعقد بين قيادة الرئيس عبد الناصر والحركة الشعبية العريقة والملتزمة في سوريا .

فبعد وصول هذه الموجة الى لبنان وسير عدد كبير من الزعامات التقليدية في موكبها انفجرت الحرب بين شمعون واخصامه وكأنها حرب بين ملك واشباه ملوك .

ما كادت الحرب تبدأ حتى وقفت المارونية السياسية كعصبية الى جانبه ووقفت الطائفيات الاخرى ومعها الدول العربية التقدمية والاحزاب الناشئة في جانب أخر .

كان الموضوع المفجر للحرب رغبة شمعون في التجديد لنفسه ومحاولاته ادخال لبنان في مشروع ايزنهاور . ولكن الصراع كان اعمق من ذلك بكثير فالسوريون ووراءهم عبد الناصر بدأوا يلعبون في السياسة اللبنانية دورا يكاد يغير ملامح الدولة ذات الطابع الماروني الغربي . والاصطدام من اجل الاستقواء بكل القوى الاستعمارية الدولية ضد عبد الناصر والسوريين بات اكثر من ضرورة لشمعون وما يمثل داخليا ومن يمثل خارجيا .

وكانت المخيمات الفلسطينية قد انتعش فيها الوعي السياسي بشكل اخاف المؤسسة اللبنانية ومن خلال التقارير المعدة لكميل شمعون كان يقرأ ان هذه المخيمات قد تحولت الى بؤر لدعوة الوحدة العربية وللناصرية بالذات ، بل تحولت الى سوق للموظفين العقائديين الذين كان السوريون ينسبونهم في اجهزتهم ليكونوا نوعا جديدا من العاملين في هذه الاجهزة يحركه اعتبار العقيدة والمبدأ اكثر مما يحركه اعتبار الراتب والاجر .

فساق شمعون قوى الدولة اللبنانية الممولة والمسلحة من حلف بغداد بصورة خاصة في وجه هذه القوى الجديدة التي تهدد استمرار الدولة التي انشأها الانتداب في لبنان . وتكاد تحول دولة الامتيازات الى مجرد دولة عربية شأنها شأن اي دولة عربية اخرى تشارك كجندي كامل في قضية المنطقة ضد الاحلاف واسرائيل .

ولم يستطع شمعون ان يسوق الى هذه المعركة الجيش اللبناني ككل ولكنه استطاع ان يسوق كل قوى الامن الاخرى وجزءا كبيرا من الجيش ، واستطاع ان يشكل من الضغط على قائد الجيش فؤاد شهاب ما يجعل هذا يحمي مؤخرة شمعون في كثير من الجبهات . فالجيش كان هناك دائما ليحد من امكانية النصر الكامل على كميل شمعون وكان هناك ليحمي حيث يستطيع المقرات الحكومية ورموز السلطة . . والجيش كان هناك ليضمن بقاء شمعون الى أخر دقيقة من حكمه .

والروايات كثيرة حول ما كان يجري داخل الجيش في تلك الفترة ، الا ان من الروايات المؤكدة ان بعض الضباط اللبنانيين هيأوا انقلابا على كميل شمعون . وكادوا يقدمون على هذا العمل لولا ان فؤاد شهاب تدارك الامر في أخر لحظة وحافظ على استمرار ولاية شمعون الى نهايتها . كما ان بعض الروايات تحدثت ايضا عن انقلاب ضد فؤاد شهاب في الجيش ولكنه فشل هو الاخر .

واستعان شمعون خارج قوى الدولة بالكتائب وانشأ فرق انصار يقاتلون الى جانبه باموال الدولة دون ان يكونوا من الموظفين . كما استعان بالسوريين القوميين المضطهدين في دمشق على يد الحركة التقدمية العربية اذ كان البعثيون والشيوعيون والناصريون قد اودعوهم السجون

ولكن كميل شمعون وان استطاع ان ينقذ دولة له في لبنان الا انه لم يستطع الاحتفاظ لنفسه بالدولة وسيطرتها على المناطق ولما نزل الاسطول السادس على شاطىء بيروت ليمنع توسع ثورة ١٤ تموز في العراق وليخمد الوضع في المنطقة وجاء على اثر ذلك الموفد الاميركي المشهور روبرت مورفي كان ثلثا الوطن اللبناني في يد الثوار وكان الثلث فقط في ظل دولة شمعون ويقول مورفي في كتاب الفه عن مهمته انه لاحظ ان العلم اللبناني كان يرفرف على مناطق مزدهرة اقتصاديا اما حيث لا ازدهار فلم يكن هناك

علم لبناني . وكأن مورفي كان يعطي بعدا اجتماعيا للحرب الناشئة ويلفت النظر الى ان الدولة الشمعونية التي خاضت الحرب ضد الثوار على اساس الحفاظ على لبنان لم تكن تعامل القسم الاكبر من اللبنانيين على انهم لبنانيون .

وملاحظة مورفي هذه توحي بان السياسة الاجتماعية التي سيسلكها حكم فؤاد شهاب في ما بعد والتي سيعبر عنها التعامل مع الاب لوبريه وبعثة ايرفد هي في الاصل نصيحة اميركية للهازونية السياسية في لبنان . ففي عهد شمعون ومن خلال المعارضة القوية لحكمه التي ظهرت بين اقطاب وزعامات وبيئات صديقة تاريخيا للغرب ادرك الاميركيون ان الوضع اللبناني كما هو غير قادر على الوقوف في وجه عبد الناصر الساحق الماحق في المنطقة العربية . وعندما كان رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب فيليب تقلا يقف ليناقش سياسة وزير الخارجية شارل مالك كان يقول له تلميحا وتصريحا وفي كل خطاب : انت يا دكتور شارل مالك ملكي اكثر من الملك ولا مصلحة للبنان في سياسة العزلة التي تسوقه اليها ، ونحن غربيون ولكن ليس على طريقتك الهدامة واسلوبك الخارج على تراثنا السياسي منذ الاستقلال ، حتى الان . والشيء نفسه كان يقوله حميد فرنجية وكان يقوله عبد الله اليافي وكان يقوله صائب سلام ، بل كان يقوله في ذلك الحين حتى جنبلاط نفسه مما كان يساهم في خلق نظرة جديدة لموضوع لبنان في الاوساط الغربية .

فؤاد شهاب

وبمجيء فؤاد شهاب الى الحكم لم يذهب كميل شمعون كشخص من الرئاسة فقط ، بل ذهبت الشمعونية ايضا كأسلوب في التعبير عن المارونية السياسية وخدمة مصالحها والكلمة الاساسية التي جاء فؤاد شهاب ليقولها في السياسة اللبنانية والتي جعلت من حكمه رغم كل الظواهر انجح حكم ماروني في نظر الغرب هي ما قاله فؤاد شهاب لمستر « مورفي » رسول ايزنهاور المفوض لتدبير امور لبنان ما بعد الحرب الاهلية: «يا سعادة السفير الفرق بيني وبين كميل شمعون هو انه من خلال سياسة الارتباط بالمشاريع العسكرية الغربية يريد ان يقول ان لبنان مع الغرب ، اما انا فاقول ان لبنان غرب ، فهو ليس بحاجة لأن يكون مع الغرب»

لبنان غرب لا مع الغرب . هذا هو المبرر المقنع الذي اقنع به فؤاد شهاب المارونية السياسية والغرب في الوقت نفسه ، وبدلا من ان ينهك المارونية بادخالها في حروب ومشادات هامشية متعبة انصرف الى بناء دولة طمع ان تكون مشابهة حضاريا واجتماعيا للدولة الغربيةوتشكل في نظره مصلحة المارونية الحقيقية .

والتغريب كسياسة للدولة لم يضرب جذوره في الارض الا في عهد فؤاد شهاب ، وبمعنى من المعاني السيئة للفظة ، كان كل رؤساء لبنان عربا ما عدا فؤاد شهاب ومن الساعة الاولى لانتخابه رئيسا وفي اول نداء توجه به للناس بعد انتخابه قال انه حريص على حسن العلاقة مع الدول العربية ولاسيا مع الجمهورية العربية المتحدة ووصف علاقته بهذه الدول بانها تقوم على

الصدق والصراحة ثم ذهب الى الحدود اللبنانية ـ السورية حيث نصبت على الحدود تماما خيمة التقى فيها مع الرئيس عبد الناصر وخرج ليقول لمرافقيه بالفرنسية : يجب ان نعرف كيف نعيش في ظل هذا الرجل العظيم .

ولكن الذين يقرأون الان تاريخ مواقف عهد فؤاد شهاب العربية من أخره لا من اوله يصلون الى نتيجة هي ان فؤاد شهاب بالقدر نفسه الذي اصر فيه امام « مورفي » انه غربي وليس من الضروري ان يكون مع الغرب كان مع العرب اكثر مما كان عربيا .

فسياسته مع العروبة في الخارج وضدها في الداخل كانت الطابع الاكثر بروزا في حكمه الذي لم تسر فيه تظاهرة واحدة ترفع الشعارات العربية التي حملها الشارع الاسلامي من قبل وحملها ايضا من بعد . ولعل ذلك كان الانجاز الاكبر في نظر المارونية السياسية والغرب لهذا الحكم الذي اصر على ان تربطه بزعيم المنطقة العربية افضل الروابط الشخصية .

وفي سعيه لان يقيم دولة « غربية » في الداخل ، و « عربية » في الخارج وجد الرجل صعوبات كبيرة في اقناع انصار الغرب في لبنان بأن يسمحوا له بان يبني دولة على الطراز الغربي . ولما عرض عليه الاب يوحنا مارون فكرة المجيء بالاب لوبريه ليمسح حاجات لبنان الاقتصادية والاجتماعية ، وليضع ما يشبه الخطوط الاولى لنهضة اجتماعية في لبنان استحسن الجنرال العرض وقال له : لابأس بالفكرة لأن جماعتنا في لبنان لا يمكن ان يقبلوا بالتطور والانماء الا اذا اخذوه من اكليركي كاثوليكي معتمد من البابا ، وعندئذ يصبح في الامكان ان يقفوا من الفكرة موقفا ايجابيا . اما اذا جاءت من غير اكليركي ومن غير اجنبي ربما لاعتبروها جرعة غير قابلة للتناول . وزاد الجنرال على الكلام بقوله : في ايام الانتداب اعتبر اهل بلادنا الاب لوجينيسال شيوعيا لمجرد انه نادى بضرورة وجود قانون عمل، وبالمناسبة تردد اللواء شهاب في المجيء بالاب لوجينيسال نفسه لمعاونته في وضع سياسة اجتماعية .

وبالاضافة الى هذا الاخراج الكاثوليكي لسياسته الاجتماعية قدم فؤاد شهاب هذه السياسة باسلوب اعتذاري فعال فقال للموارنة : اسمحوا لي بالعناية بالمناطق والطبقات الشعبية فانا افعل ذلك لالبننهم وازرع في نفسهم الولاء اللبناني والمعنى المضمر لهذا الكلام « انني لااقول بالاصلاح لأن الاصلاح حق بذاته بل اقوم به لأنه وسيلة من وسائل تمديد طريقة الحياة اللبنانية الى الارياف وكسبها للنظام » .

ولفؤاد شهاب حديث اجراه يوما مع وفد من الفلسطينيين جاؤوا اليه يشكون وطأة المكتب الثاني في معاملتهم داخل المخيمات وخارجها قال : تعالوا نتكلم بصراحة . لبنان بلد طوائف . وكل من عليه نعامله في الحقوق والواجبات على هذا الاساس . فاذا اعتبرناكم طائفة فانكم لكثرتكم وتجمعكم في بيئات واحدة وبحبكم للسياسة ستأكلون الطوائف كلها . . . ثم ان مشكلتكم يا فلسطينيين اكبر من قدرة الدولة اللبنانية وامكاناتها لو كنا دولة بمؤسسات واجهزة لعاملنا الفلسطيني بشكل أخر درسنا مشاكلكم الاجتماعية والنفسية والصحية والسكنية ووضعنا لكل هذه المشاكل حلولا هادئة وطويلة النفس . ولكن الدولة اللبنانية في اطار النظام الحالي تبقى دون القدرة على مواجهة هذه المشاكل ومن هنا لا بد من ان يغلب الطابع الامني على الطابع الاجتماعي وبكلمة المشكلة اكبر من لبنان . فلبنان مع الفلسطينيين اما ظالم او مظلوم ولا حل ثالث .

وخرج الفلسطينيون من عند الرئيس شهاب وقد عرفوا بشكل واضح موقف النظام اللبناني منهم انه يعطي لنفسه الحق بان يعالجهم بمنظار امني بحت لأنه بالفعل لا بالادعاء عاجز عن غير ذلك من الحلول .

وقد كسب فؤاد شهاب للمارونية مكاسب كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر فرضه على العرب ان يكون مدخلهم الوحيد الى لبنان من خلال شخص رئيس الجمهورية وشخص رئيس الجمهورية وحده،فهو الشرعية التي منها

يحق للدول العربية التعامل مع لبنان وحتى ذلك الحين كانت الدول العربية تركز في اتصالاتها على الزعامات الاسلامية وتنطلق من اعتبار هذه الزعامات « الحزب العربي » في لبنان فجاء فؤاد شهاب يواجه الانظمة العربية بمنطق ان الدار لا تدخل الا من ابوابها اي الرؤساء الموارنة .

كذلك من اهم خدمات فؤاد شهاب للمارونية السياسية تعطيله للشارع الاسلامي في بيروت وطرابلس هذا الشارع ذو الدور البارز في الحركة الوطنية العربية قديما وحديثا فقد استطاع فؤاد شهاب باصلاحاته وحسن صلاته بعبد الناصر وفعالية مكتبه الثاني ان يلجم ويكافح الاحزاب العقائدية ويراقب حركة الرأي والفكر المستقل ويقدم بالنهاية خدمة كبرى للبنان الامتيازات وللغرب في العالم العربي ، وللانظمة العربية بشكل عام في وجه اي حركة شعبية .

واذا عرفنا ان المقياس الاكثر دلالة على قومية اي نظام عربي هو في مدى سيطرة هذا النظام على شارع بيروت المسلم عرفنا اي دور لعبه حكم الرئيس شهاب في خدمة الاستقرار العربي بمعنى قوة الانظمة في وجه الحركات الشعبية . كذلك ومن المكاسب التي حققها فؤاد شهاب للمارونية تعزيز رئاسة الجمهورية بنظام الغرف الذي اعطى رئاسة الجمهورية القدرة العملية لادارة شؤون الدولة والسيطرة عليها سيطرة كاملة ، فقبل فؤاد شهاب كان رئيس ولكن لم تكن رئاسة بمعنى المؤسسة ذات الاجهزة والامكانات الادارية والفنية .

وبلغة هذه الايام يمكن القول ان الرئيس شهاب قد حقق للمارونية السياسية نوعا من التقسيم ايضا ، فقانون الانتخابات الذي اصدره فؤاد شهاب وقسم به بيروت الى منطقة شرقية وغربية يفصل بينهما طريق الشام قام لغاية تمثيلية انتخابية بحتة اذ تم بناء على طلب الزعامات الاسلامية التي خشيت على نفسها من انتخابات تجري على نطاق بيروت ككل ، ولكن النتائج كانت

في النهاية تقسيمية اذ اصبح المسيحي ينتخب المسيحي ، والمسلم ينتخب المسلم ، ولم يعد المرشح محكوما بمراعاة الطوائف غير طائفته . وهناك من يعتبر ان فؤاد شهاب بخلقه اجهزة خاصة بمراقبة الحصص الطائفية في ادارة الخدمة المدنية وغيرها قد خلق نوعا من الطائفية المنظمة التي لا يظلمها كثيرا من ينعتها بانها نوع من انواع التقسيم . ولكن الرئيس الماروني الذي قصد ان يعمل اكثر من اي ماروني أخر لمصلحة الموارنة ،وكان بذلك صادقا كل الصدق لم تؤيده المارونية السياسية في تقوية الدولة بل رأت في الفكرة الاصلاحية نفسها تعديلا خطرا لتوازن القوى بين الطوائف والمناطق . فمجرد التزام الدولة بالتنمية والتزامها بالعناية بالمناطق المختلفة وتوسيعها للتعليم الحكومي يعطي فرصا للمحرومين ويلغي قدرة الامتيازات الطائفية على ابقاء الفروق الاجتماعية والاقتصادية بين المناطق والفئات والطبقات . وهنا كان الخلاف الاساسي فقد تبين بصورة شبه مفاجئة للمارونية السياسية ان تعزيز سلطة الدولة وتوسيع خدماتها هما في مصلحة المسلمين وادرك المسلمون هذه الحقيقة فاصبحوا من جهتهم المؤمن المتحمس لاصلاحات فؤاد شهاب بل لمجرد وعوده باقامة دولة توزع خيراتها بين جميع اللبنانيين .

وهنا لابد من القول ان هذا الارتباط الذي حصل بين فكرة الدولة وبين المسلمين هو اهم انعطاف حصل في تاريخ لبنان السياسي وهو الذي قذف بالمارونية السياسية الى مواقع العداء الصريح للاصلاح كفكرة ولمبدأ قيام دولة ذات التزام ببرنامج خدمات فخسرت المارونية بذلك الوجه المدني الذي اطلت به في اعقاب الاستقلال ، فكانت الحريصة اكثر من غيرها على توحيد قضيتها وقضية بناء دولة جديدة بينما كان الاسلام السياسي هو المتهم بالفوضوية والعداء لنزعة الاصلاح .

وعندما جاءت انتخابات الرئاسة العام ١٩٦٤ قاومت المارونية السياسية التجديد لفؤاد شهاب وانفض من حوله الكتائبيون وهم الحزب الذي كان

يشكل غطاءه الماروني الوحيد ، وقاومته بصورة خاصة البطريركية ومعها القوى الدولية بشكل عام ووقع فؤاد شهاب تحت الارهاب الفكري والسياسي للمارونية السياسية فرفض ان يخوض المعركة بالاسلحة الشعبية التي اقترحها عليه المكتب الثاني وعبد الناصر ، فكأنه رفض رئاسة مؤكدة كما قالت بعض الاوساط في ذلك الحين ، لأنه خشي ان يجد نفسه في أخر المعركة منتصرا بقوة المسلمين والشارع الاسلامي والعناصر التقدمية التي حارب حركتها طيلة عهده وان لم يحارب اشخاصها ورموزها وفضل الامير الشهابي البقاء في بيته على الرئاسة بمنة المسلمين والتقدميين .

ثورة الموارنة

الحلف الثلاثي

من شارل حلو الى سليمان فرنجية

كان شارل حلو خليفة شبه طبيعي لفؤاد شهاب . فالرئيس الشهابي كان قد نجح في اعادة الاعتبار لمدرسة اخرى في السياسة غير المدرسة الشهابية هي مدرسة الشيخ بشارة الخوري باعتبارها اقرب المدارس السياسية الاخرى اليها باعتدالها السياسي وحرصها على اقامة علاقة حسنة مع الدول العربية وامتناعها عن الديماغوجية الطائفية المتطرفة في الوسط المسيحي . وكان شارل حلو من اصدقاء بشارة الخوري ذوي السمعة الثقافية ومن الذين بنوا لانفسهم مكانة محترمة بسبب بعض المواقف المبدئية فقد تجرأ شارل حلو على الاستقالة من وزارة العدل في عهد بشارة الخوري لاحد سببين لم يعرف احد حتى الان ايهما كان السبب الحقيقي ، ولكن براعة شارل حلو طرحتهما معا دون تخصيص . الاول هو الاحتجاج على اعتقال الصحافي الكبير جورج نقاش لمقاله التاريخي حول « سلبيتان لا تصنعان امة » والسبب الاخر هو اطلاق عيارات نارية في مطار بيروت ترحيبا بعودة رياض الصلح ، رئيس الحكومة ، من بعض اسفاره .

وكان في تاريخ شارل حلو غير هذه النقطة المشعة . كان له نجاحه الانتخابي في بيروت ضد الفرد نقاش رئيس الجمهورية السابق والبيروتي العريق ، بخلاف شارل حلو السوري الاصل من « مشتى الحلو » الذي اوصلته عصاميته وثقافته وبراعته في الكتابة والكلام لأن يصبح نجما في اكثر من صالون لبناني واحد ، واهم هذه الصالونات صالون ميشال شيحا

صاحب جريدة الـ « لوجور » الناطقة بالفرنسية حيث كان شارل حلو رئيس التحرير وكاتب المقالات المعبرة عن اتجاه بشارة الخوري السياسي .

الا ان النقطة الاكثر اشعاعا في تاريخ شارل حلو بالنسبة للقوى الدولية صاحبة الدور الكبير في اختيار الرؤساء كان المشروع الذي طرحه في ابان ثورة ١٩٥٨ ، فيومذاك فاجأ شارل حلو جميع الاطراف بالدعوة الى مؤتمر صحافي اذاع فيه ما اسماه « مشروع الحياد اللبناني » ، وفيه دعوة الى لبنان محايد على الطريقة النمساوية . وكان المفهوم من حديثه ان لا حل في نظره للقضية اللبنانية الا في نوع من العزلة اللبنانية عن الصراع العربي - الاسرائيلي . ولم يترك هذا المشروع في حينه صدى كبيرا الا انه ترك ما فيه الكفاية ليطرح شارل حلو رئيسا للجمهورية على اثر انتهاء الثورة . ويقول رياض طه ان الرئيس عبد الناصر قال له ان الاميركيين طرحوا معه اسم شارل حلو للرئاسة الى جانب اسم فؤاد شهاب

وهكذا كان مجيء شارل حلو الى الرئاسة نوعا من الاستمرار للنظرة ذاتها في السياسة اللبنانية . فالصديقان الكبيران له عدا اميركا طبعا هما فرنسا والقاهرة . وكان ضعف شارل حلو السياسي دافعا له الى المزايدة المسيحية على خط الاجهزة الشهابية شريكته القوية في الحكم . واستعان بزاده الثقافي وقدرته التنظيرية وحنينه الدائم لمجالس استاذه ميشال شيحا لأن يطرح نفسه املا للمارونية السياسية بالعودة الى مواقعها الضائعة في السراي والجيش ومجلس النواب ايضا حيث خلا هذا المجلس للمرة الاولى منذ فترة طويلة من كميل شمعون .

ودفعه رد الفعل الشهابي على محاولة تحرره الى المزيد من الارتماء في يد المارونية السياسية . اذ لعب المكتب الثاني الشهابي اللعبة الاكثر خطورة على النظام اللبناني وعلى التوازن السياسي فيه بتسهيله امر دخول العمل الفدائي الى لبنان بقصد وضع شارل حلو تحت ضغط الحاجة الملحة الى امكانات هذه الاجهزةعلى صعيد ضبط الامن ومكافحة الخطر الفلسطيني وامتداداته على الساحة اللبنانية .

وكان رد شارل حلو على ذلك التصرف ان اصبح عضوا مستترا في « الحلف الثلاثي » الشهير تأسيسا ودعما . فهو لم يكتف بأن يعطي هذا الحلف نصرا شبه ساحق في المناطق المسيحية بل حرص على ان يوصل الى الرئاسة عضوا أخر غير علني في الحلف الثلاثي هو الرئيس سليمان فرنجية .

وكان من ابرز محطات الافتراق بين المكتب الثاني وشارل حلو معركة جبيل الفرعية حيث وقف شارل حلو علنا في وجه المكتب الثاني المندفع اشد الاندفاع لاسقاط ريمون اده عدو الشهابية الرقم ١ وصاحب الشعار الشهير « اعداء لبنان ثلاثة : الصهيونية والشيوعية والشهابية » .

وبعدعام على هزيمة ١٩٦٧ التي اصابت العرب وانزلت المزيد من الضعف بالموقف العربي في لبنان تجمع الموارنة وراء « الحلف الثلاثي » كميل شمعون - بيار الجميل - ريمون اده ، ومعهم زعامة موارنة الشمال : سليمان فرنجية .

ومن اسباب هذا التجمع حول الاشخاص الاربعة تمثيلهم البيئات المارونية المختلفة التي كانت تصنع كل واحدة منها زعامتها الخاصة .

● فكميل شمعون يمثل بيئة جبل لبنان بكل ما فيها من علاقات اجتماعية مغرقة في القدم ، وبكل ما فيها من صلابة وحياة منعزلة وتراث من المخاوف والحساسيات والاوهام المبررة وغير المبررة

ولقد استطاع شمعون خلال حياته السياسية الطويلة الممتدة من بداية الثلاثينات حتى الان ان يجعل من نفسه النجم المستمر لسياسة جبل لبنان المحلية والانتخابية واتجاهاتها الخارجية ايضا .

دخل شمعون السياسة الجبلية يوم كان جبل لبنان يمثل منطقة انتخابية واحدة فانشأ لنفسه علاقات تمتد الى كل اطراف الجبل . وعندما قسمت محافظة جبل لبنان الى مناطق انتخابية متعددة اختار الشوف مركزا اوليا

لنشاطه . ولكنه استمر يؤلف اللوائح الانتخابية ويساند المرشحين في اكثر المناطق الجبلية الاخرى . وبانهيار الزعامتين التاريخيتين الكتلوية والدستورية ورث كميل شمعون الزعامتين معا ، الاولى ورثها بجاذبية السياسة الخارجية التي استقر عليها في أخر الامر وهي سياسة انحياز دائم للغرب ، والثانية ورثها بكونه الرجل الثاني فيها منذ تأسيسها على يد الرئيس بشارة الخوري ، وبكونه من دير القمر البلدة المارونية الاساسية في قيادة المارونية السياسية في لبنان .

لهذا وجد الجبلي التقليدي نفسه ممثلا في «الحلف الثلاثي» من خلال شخصية كميل شمعون التي تجمع صفة القطب السياسي وصفة النجم السياسي في الوقت نفسه فبين رجال السياسة قلة تجمع الصفتين معا .

● ويمثل ريمون اده الذي تغلب في شخصيته صفة النجم على القطب ، بيئة صالونات بيروت السياسية التي اعتادت ان تقدم الى الساحة السياسية زعامتها الخاصة . . . ومع ان صالونات بيروت ليست في اكثريتها او حتى في مركز ثقلها مارونية بقدر ما هي ارثوذكسية وسنية وكاثوليكية ، فان هذه الصالونات تدرك الوزن الخاص الذي للموارنة ، في السياسة اللبنانية . ومن هذه الزاوية تعتبر وجودها ضروريا داخل المارونية السياسية ، وفي صالونات بيروت وبالتالي في الزعامات التي مثلتها وتمثلها ، تتعايش افكار ونزعات وارتباطات تبدو للوهلة الاولى متناقضة ومشتتة ففيها تبرز الصلة الاوثق بالغرب اتجاهات واشخاصا وسياسات وسفارات ، وفي هذه الصالونات تظهر الشكوك الاكثر حدة بسلامة منطلقات المارونية السياسية ومقدرتها على معالجة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والاخطار الوطنية ، وفيها ايضا تتعرض المارونية السياسية لتحديات الافكار العصرية الآتية اما من عالم الثقافة او من عالم العمل والتجارة حيث تفرض المعاصرة نفسها وترى في العصبيات التقليدية والعلاقات القديمة حواجز في سبيلها .

واذا كان ريمون اده هو الممثل الابرز لصالونات بيروت داخل المارونية السياسية الا ان زعماء موارنة أخرين يلعبون الدور نفسه كشارل حلو وميشال خوري وغيرهما .

● ويمثل بيار الجميل منذ دخوله السياسة اللبنانية المارونية الجديدة اي تلك التي تؤمن بضرورة تقوية الذات ، وتؤمن بالاستجابة للتحديات المختلفة كما تؤمن بالتنظيم السياسي والعسكري وبحاجة المارونية الى تشكيل حزبها العصري ومنظمتها العصرية وتكوين موقفها الفكري والعقائدي الثابت فقد بنى حزب الكتائب خطته السياسية على الشكل التالي : هنا طائفة بلا حزب فلنكن نحن حزب هذه الطائفة الوحيد .

وعرفت الكتائب ان تلتزم بعض القواعد التي وان جعلتها في الفترة الاولى من حياتها حزب شباب فقد ارتدت عليها على المدى الطويل بغلة ثمينة .

ساند حزب الكتائب الشرعية وعلى الاخص شرعية الرئاسة الاولى بصفتها ممثلة المارونية في الحكم . وساند الجيش وساند البطريركية وكل المؤسسات التي تقوم عليها المارونية السياسية ، ورفض ان يسير في معارضة ضد اي جزء اساسي من المؤسسة المارونية . وكان على بعد متساو من الدستوريين والكتلويين من اميل اده ، وبشارة الخوري ، من كميل شمعون وفؤاد شهاب ، من المكتب الثاني ومن خصومه .

فكان بذلك الحزب الفاشي الذي وان كانت غلبة عنصر الشباب فيه تخيف الوجهاء وشيوخ العائلات الا انه يرضي في النهاية هؤلاء بما يمثله من خشبة خلاص للشرعية وقوة ضاربة لها في وجه خصومها . فالانزعاج من الحزبية الذي ينشره حوله في بيئة الجبل غير المعتاد على فكرة التنظيم وتقاليدها انزعاج مرحلي يزول في اوقات الشدة التي يتعرض فيها النظام وطائفته

للخطر . ومن هنا كانت الكتائب نقطة الثقل في التكتل السياسي الماروني خصوصا عندما اصبحت لهذا التكتل معاركه العسكرية وحاجته لتعبئة الشباب في قضية « مقدسة » ومن هنا كان بيار الجميل في المنظور التاريخي اهم رجل انتجته المارونية السياسية منذ ان وجدت حتى الآن ، فقد اعطاها حزبها الوحيد واعطاها كذلك فكرة الدفاع عن الذات بالذات .الامر الذي ليس من طبيعة الجبل الماروني المتكل على الدول .ولا هو من طبيعة صالونات بيروت التي تعودت ان تنتظر وصول الاساطيل من البحر حتى تطمئن على نفسها ومصالحها فلا الجبل بهذا المعنى مقاتل ولا صالونات بيروت مقاتلة . واذا كان هناك من ضرورة قتالية فلا بد من استيلادها عن طريق التوعية والتعبئة في حزب وهذا ما فعله بيار الجميل .

الا ان بيار الجميل وان كان الرجل الابرز على هذا الصعيد فقد سبقه غيره من الموارنة الى محاولة تأليف الحزب المطلوب ، وابرز الذين حاولوا هذه المحاولة يوسف السودا الذي كان الموحي في بعض التقديرات لمواطنه البكفياوي بيار الجميل بالتشبه به .

وبعد يوسف السودا حاول المحاولة نفسها توفيق لطف الله عوّاد الذي انشأ « الوحدة اللبنانية » فلم تستطع هذه المنظمة شبه العسكرية ان تفرض نفسها لأنها بقيت مطبوعة بشخص رئيسها واقتصر نشاطها على منطقة حصرون التي منها توفيق لطف الله عواد . وبالمقارنة استفاد بيار الجميل من انطلاقه السياسي والى جانبه اشخاص بارزون كجورج تقاش وغبريال خباز وشارل حلو وغيرهم من الكفاءات المنظورة وحتى الان تستفيد الكتائب جدا من فكرة وجود اكثر من شخص في القيادة ، والحديث الدائم عن المكتب السياسي للكتائب هو دليل نجاح على هذا الصعيد .

والكتائب اقرب التجمعات المارونية الى ان تكون مستوفية عناصر الثورة المضادة . ذلك ان الثورة المضادة تفترض بعض الارتفاع عن الواقع

الفاسد وبعض التجاوز له من اجل الايحاء بأمل او خلق « صوفية » او هالة براءة من نوع معين . والا ما كان بالامكان ان تكون حركة ما ثورة مضادة او غير مضادة . وفي ضوء عنوان الثورة المضادة هذا يجب النظر الى نظافة رئيس الكتائب الشخصية والى مساهمة الكتائب في استقلال العام ١٩٤٣ والى اللهجة المعتدلة التي تتناول بها المنظمة المارونية الرقم ١ فكرة الوحدة الوطنية اللبنانية والميثاق والحوار والقضية الفلسطينية كقضيّة واليسار الوطني الى أخر ما هنالك من مواقف ترتفع بها الكتائب قليلا عن الواقع الطائفي المحض ولكن باتجاه بل بقصد تشكيل قوة مضادة في وجه اي تحرك حقيقي للثورة او للعروبة او لليسار .

● اما الزعامة الرابعة : سليمان فرنجية ، فهي ممثلة المارونية خارج جبل لبنان ، تلك التي ولدت تاريخيا المارونية باعتبار ان الموارنة اتوا اولا الى الشمال اللبناني ثم انتشروا جنوبا في الجبل ولكنها تخلفت عن مولودها منذ اصبحت امارة الجبل في جنوبه لا في شماله . ونما مع الايام هذا التفاوت .

فموارنة الشمال هم في الحقيقة مسلمو الموارنة ، من ناحية الغبن العمراني والاقتصادي والاجتماعي المرافق للغبن السياسي بالتأكيد . وقد احتاجت المؤسسة المارونية السياسية موارنة الشمال وموارنة البقاع الذين هم ملحقون عشائريا بموارنة الشمال احتاجتهم لبناء الجيش الذي هو العمود الفقري للنظام فعندقت والقبيات وتولا والزاوية ودير الاحمر ورأس بعلبك وغيرها هي منجم تجنيد فقراء المسيحيين في المؤسسة العسكرية ، ولولا موارنة عكار والزاوية والبقاع لاستحالت عملية اقامة جيش ذي طابع طائفي لأن لا مارونيا فقيرا بكثافة الا في تلك المناطق .

وقد كان الفرنسيون اول من انتبه الى ضرورة ادخال موارنة الشمال في الجيش ولكن فكرة الاستعانة بالمارونية غير الجبلية (جبل لبنان) في السياسة والادارة قد نمت في عهد فؤاد شهاب الذي اكثر من الاعتماد على ممثلي هذه

المناطق : رينيه معوض ـ انطون سعد ـ انطون بركات ـ باعتبار ذلك جزءا من التحول الاجتماعي المرافق لمجيء فؤاد شهاب والعسكر الى الحكم ، وباعتبار ذلك جزءا من المعركة ضد مارونيي بيروت والجبل وكميل شمعون الذي سقط في اول انتخابات اجراها شهاب وريمون اده الذي سقط في ما بعد .

وكان مجيء سليمان فرنجية الى رئاسة الجمهورية هو ذروة الدور الذي بدأت مارونية الشمال تلعبه . فقد جاء معه بشكل مباشر مثقفو الزاوية ووجهاؤها يتولون لاول مرة المراكز الاساسية في الادارة وفي الشركات وفي المصارف بشكل لم يسبق له مثيل ، وقائدا الجيش اللذان عينهما سليمان فرنجية في عهده الاول هما اسكندر غانم من صغبين بالبقاع وحنا سعيد من القليعة في الجنوب .

لقد كان شقيقه حميد فرنجية اقرب الى ان يكون ممثل صالونات بيروت في السياسة مما هو ممثل قرى الشمال وعائلاته وعشائره وقواه الضاربة .

وربما كان ايضا في مجيء سليمان فرنجية الى السلطة امارة شعور عند المؤسسة المارونية بحاجتها الى مادة صلبة وايمان مطلق بالطائفة ، ودورها بعد ان عملت الافكار والعقائد والتيارات والمصالح فعلها في تليين العصب الماروني في السياسة وزرع الشكوك في اذهان الشباب بصلاحية العمل السياسي على اساس طائفي . وقد كرهت المارونية السياسية فؤاد شهاب لأنه بالضبط ممثل هذا الشك ، فان الامير الشكاك كان انذارا للمارونية المحافظة ان تحمي شبيبتها من الشك بعد ان وصل الى امرائها .

لقد اعتبرت المارونية السياسية دور سليمان فرنجية صاحب شعار « وطني دائما على حق» نجدة لها ، ولكن من المفارقات ان ممثل فقراء المسيحيين وان « ابدع » زمن الحرب ظهر اقرب الى المسلمين « والعرب » في زمن السلم .

ثورة الحاضر ضد الماضي والمستقبل

بدأت الثورة المارونية ، ثورة انتخابية دستورية عام ١٩٦٨ ثم تحولت الى حركة انقلابية عسكرية عام ١٩٧٣ ثم قالت كلمتها الكاملة باعلان حرب اهلية شاملة عام ١٩٧٥ .

وككل ثورة مضادة فيها الشيء وعكسه . فهي من جهة استقواء بالنصر الاسرائيلي على العرب عام ١٩٦٧ وهي من جهة ثانية اعجاب الشبيبة المارونية بنموذج الفدائي الفلسطيني وقرار المؤسسة المارونية بمواجهة التحدي العربي ببطولة مماثلة . هي من جهة اعتزاز بانجازات النظام اللبناني البارزة على صعيد الديمقراطية السياسية والازدهار الاقتصادي وهي من جهة ثانية تأثر بالفكر العربي الاستبدادي الملازم للانقلابات العسكرية . هي من جهة شعور بحق لبنان ان يكون قدوة ، وهي من جهة ثانية حس بخطر الاضمحلال المعنوي عن طريق العقائد القومية والتقدمية، والاضمحلال الماديّ عن طريق التناقص الديموغرافي المضطرد. هي من جهة وثبة نخبة للانفراد بالسلطة وهي من جهة ثانية وهم النطق باسم اكثرية صامتة تتطلع الى من ينقذها من وطأة الفلسطيني المسلح . هي من جهة بسالة في اعطاء النفس دور الدفاع عن الشرعيات ومن جهة ثانية صفاقة في تجاوز كل شرعية لتحقيق الذات . هي من جهة وقفة شجاعة يقفها الضعيف في وجه العربي القوي ، ومن جهة ثانية انبطاح بلا قيد او شرط في وجه الاجنبي الاقوى ، وهي خوف على اقتصاد لبنان بعد ان انتهت التجربة الاصلاحية الشهابية ، وبدأت تفرز الازمات ، وهي خوف من اقتصاد لبنان

ان ينتج اصلاحا مرفوضا او ردود فعل تمردية متنامية . وهكذا من الشيء وعكسه تكونت الانطلاقة المارونية الجديدة .

بدأت المارونية ثورتها المسلحة بعد ان احست بحصار موجع في الداخل والخارج ، ففي الداخل كان الوضع الفلسطيني قد استطاع التعويض عن احداث ايار ١٩٧٣ بحرب تشرين ١٩٧٣ التي اوصلته الى الامم المتحدة .

وبرغم ان الرئيس اللبناني آنذاك سليمان فرنجية مثل العرب اجمعين في هيئة الامم ، الا ان تناقض شرعية الثورة مع شرعية المارونية السياسية كان قد بلغ مستوى هاما فاستقوت الشرعية الاولى بحرب تشرين واستقوت الشرعية الثانية بالنكسة السياسية بعد الحرب وجاء مقتل معروف سعد يقدم مناسبة الانفجار وكان التناقض الوطني الاساسي يتغذى بازمة اجتماعية يضاعفها الاحتكار وضيق اوضاع الطبقات الوسطى ، ويؤججها انغلاق النظام على الاصلاح كما اكدت تجارب الوزراء اميل البيطار وهنري اده وغسان تويني وغيرهم .

في الداخل اذن كانت الخيارات صعبة ، وفي الخارج العربي كانت الخيارات اصعب .

وفي هذا الاطار راحت قضية المحرومين تتفاقم ، ونزلت معها الطائفة الشيعية لاول مرة الى التوازن الحاكم في البلد والذي اقتصر حتى ذلك الحين على المارونية السياسية والسنية السياسية .

كان اكثر ما اخاف المارونية وحدة خصومها وعجزها عن تحريك التناقضات بينهم فللمارونية السياسية خصوم ثلاثة يهمها ان تضعف اثرهم جميعا ، بل ان تلغي حصتهم السياسية حيث يمكن ، وهم اليسار والعرب والاسلام السياسي .

وهي تتبع في الحرب ضد هؤلاء الخصوم واقعية ومرونة لا تبدوان سمة ظاهرة من سماتها ، فتلعب على التناقضات القائمة بين هؤلاء الثلاثة .

وقد سبق لها في مراحل مختلفة ان تقربت الى كل من هؤلاء الخصوم على حساب الخصمين الاخرين . ان صاحب الحصة الاكبر منها ومعها هو الاسلام السياسي الذي تؤثر في العادة ان تحكم معه وتتعاون واياه على اجتياز الازمات المصيرية وغير المصيرية ومشاريع الميثاق والوفاق الوطني والصيغ التعايشية تبرمها المارونية في العادة مع الاسلام السياسي ، مقصية عن طريقها اليسار النامي والعربي النافذ .

ولكن التبسيط المخل وحده يبرر الظن بان الوضع لا يمكن ان يتغير ولو لفترات محدودة ، فنحن نرى على سبيل المثال ان المارونية السياسية تمد احيانا يدها الى العرب لتخفف من قيمة الاسلام السياسي ولتلجم اليسار في الداخل .

فحكم فؤاد شهاب كان يقوم على مراعاة الدول العربية على حساب الاسلام السياسي واليسار ، ففي عهد شهاب كان اليسار ضعيفا وكان الاسلام السياسي هو الاخر صاحب حصة ضئيلة نسبيا في شؤون الدولة لان العقد كان قائما وفعالا بين الدولة اللبنانية والدولة العربية الاكثر وزنا واثرا في ذلك الحين وهي الجمهورية العربية المتحدة .

وحتى العمل الفدائي نفسه فقد غازلته المارونية السياسية عند نشأته وسهلت دخوله الى لبنان ايام شارل حلو محاولة الاستقواء به ضد الموجة الناصرية .

وما اجرته المارونية يوما مع فؤاد شهاب راودها اثناء الاحداث الاخيرة ويراودها كل يوم .

اما اليسار ، خصوصا عندما يكون متحالفا حلفا وثيقا جدا مع قوة تقليدية داخلية ، فانه بعكس الظنون ، غير ساقط نهائيا من حساب المارونية السياسية ، وكم من مرة تشعر فيها المارونية السياسية بانها في ازمة مع نفوذ عربي قوي او مع مطالب اسلامية ضاغطة فتمد يدها ولو لمرحلة محدودة وفي حجم محدود للقوة اليسارية . ففي عهد الوحدة كان للدولة ، ومن ورائها المارونية السياسية ، حرصها الظاهر على انعاش اليسار اللبناني النقابي وغير النقابي المتحفظ على حكم عبد الناصر بل المعادي له في وقت ما .

كذلك حاولت ان تلعب اللعبة نفسها عام ١٩٧٥ احتفاظا بقدرة رئيس الجمهورية على ابقاء بعض الزعامات الاسلامية التقليدية خارج السلطة ، فاستعاضت بمرشحي كمال جنبلاط اليساريين عن الاتيان برئيس وزارة يمثل الاسلام السياسي .

ويدخل من هذا الباب ضرب المارونية السياسية الدائم على وتر العلمانية ، محاولة عن هذا الطريق تصوير نفسها امام التيار اليساري بانها الاقرب اليه من الاسلام التقليدي بل من الدول العربية ، جاعلة من شعار العلمانية اغراء للنزعة التقدمية بمماشاتها على طريق التخلص من ثقل الحصة الاسلامية في اللعبة السياسية التقليدية ، بل جاعلة من العلمانية وسيلة افساد بين الخصوم المعادين لها ووسيلة تعقيد لمثقفي البيئات الاسلامية والعربية ، واستكبار عند مثقفي الموارنة والمسيحيين بشكل عام .

وكون الموضوع ذا علاقة بالدين والشريعة الاسلاميين ، فهو من المواضيع الحساسة التي تشكل صعوبة كبيرة في وجه الوطنيين الذين يحملون هذا الشعار .

والمارونية السياسية تعرف ذلك فتقول : اذا كنتم ثوريين حقا فلا مدخل حقيقيا الى الثورة الا من باب العلمانية .

وهكذا توضع العقبة الكبرى في اول الطريق بدلا من ان تأتي في أخرها باعتبار ان التحرر الديني هو اصعب وأخر اصناف التحرر ، وهو زمنيا يأتي بعد ، لا قبل ، باعتباره نتاج التحرر السياسي والاجتماعي والاقتصادي لا مقدمة له ، كما يدعي اولئك الذين يحرصون على ان تدخل الثورة من الباب الضيق ، اي : لا تدخل على الاطلاق .

ولكن الثورة الفلسطينية خلقت في لبنان ما عطل قدرة المارونية السياسية على مواجهة خصومها بالاساليب التقليدية ومنها تحريك التناقضات بين خصومها . فالثورة الفلسطينية قدمت على الساحة اللبنانية وجودا عربيا ثوريا ، وسلحت اليسار بالسلاح المادي وبالقضية التي تهم اكثر من طبقة ولا تنتظر استكمال الوعي الشعبي على حقوقه ومطالبه ، والزمت الاسلام السياسي بموقف دفاعي عنها في وجه الخطر على كرامة العرب والمسلمين ، فوجدت المارونية السياسية نفسها امام وحدة صف يساري فلسطيني اسلامي غير قابلة للانفصام على المدى المنظور ، فثارت لتحمي امتيازاتها وتفرض برنامجا سياسيا مدعوما على الصعيد العربي والدولي .

وصحيح ان ثورة ١٩٧٥ المارونية هي ثورة كيانية غايتها الحفاظ على الامتيازات الطائفية .

وصحيح ايضا انها « حرب وقائية » ضد صعود الطبقات الشعبية .

الا ان في هذه الثورة ايضا رائحة صراع الاجيال ؛ وكأن الجيل الماروني القيادي بدأ يشعر بانه كما تسلم القيادة من رجال مختلفين عنه مهدد بان يسلم هذه القيادة لرجال مختلفين عنه ايضا فأعلن الحاضر الحرب ضد المستقبل ، كان الجو الماروني يتمخض بالفعل بنمط من الشبان القياديين اكثر انفتاحا على العروبة واليسار والثورة الفلسطينية من القيادات التاريخية .

ومن الدلائل على طبيعة صراع الاجيال هذا حرص كل هؤلاء التاريخيين بدون استثناء على ابقاء الزعامة في بيئة بالذات ، فيرث امين وبشير بيار

الجميل ، ويرث داني ودوري كميل شمعون ، ويرث طوني فرنجيه اباه سليمان .

ان الجيل الحالي من القيادات المارونية يمثل لا الانغلاق السياسي عن العرب فقط بل الانغلاق الفكري والثقافي ايضا .

فهم يمثلون ، بنوعية ثقافتهم ، نجاح التعليم الاجنبي ، الفرنسي ، في خلق نموذج من اللبنانيين يكاد لا يتكلم اللغة العربية . فالشيخ بيار الجميل وريمون اده بشكل خاص ، بالكاد يتكلمان العامية وحتى كميل شمعون وسليمان فرنجية وشارل حلو ايضا لو طلب منهم تفسير بيانات « الجبهة اللبنانية » لصعب عليهم فك اسرارها البلاغية المدبجة بلغة تلامذة الاديب اللبناني الراحل امين نخلة وابرزهم ادوار حنين .

لقد كان التعامل اسهل على الوطنيين مع اشخاص كيوسف السودا او بشارة الخوري او بترو طراد او ايوب ثابت منه مع جيل القيادات الحالي ، لان الجيل السابق وان كان في اكثريته منغلقا من الناحية السياسية الا ان انتماءه اصيل الى حركة النهضة العربية من خلال اتقانه للغة العربية واطلاعه على آدابها وحضارتها .

ومن المفارقات ان المرحوم يوسف السودا ، الاب الحقيقي لنزعة الانفصال في السياسة اللبنانية ؛ مات وهو يؤلف كتابا في نحو اللغة العربية ، وكانت محاضرته الشهيرة في مطلع الاستقلال اللبناني في مؤتمر المحامين العرب في دمشق قطعة رائعة من البيان العربي بقدر ما هي وثيقة انفصالية تمثل اصرار المارونية السياسية في لبنان ان يكون استقلال العام ١٩٤٣ استقلالا عن العرب اولا وعن فرنسا ثانيا .

وذلك الجيل السابق الذي ينتمي اليه السودا ، برغم انه كما قلنا ، انفصالي سياسيا وقد يكون من هذه الناحية اصلب موقفا من كميل شمعون مثلا ،

الذي لعب في بعض اطوار حياته دور « البطل العربي » و« الاتحادي الهاشمي » ، الا ان الحوار كان اكثر انتاجا مع السودا واضرابه نظرا لكونهم ابناء حقيقيين بل نجوم في النهضة الثقافية العربية الحديثة التي انطلقت في القرن الاخير من عمر الامبراطورية العثمانية . فبشارة الخوري والسودا هما من عائلة فكرية واحدة مع امين الريحاني وجبران خليل جبران ومارون عبود وجرجي زيدان ويعقوب صروف وفرح انطون وشبلي الشميل وغيرهم من مشاهير الانبعاث الفكري العربي .

ان اغلب الجيل السابق قد درس في معاهد اما فرنسية ، كاليسوعية ، او الفرنسية فيها لغة اساسية ، كعنطورة والحكمة والبطريركية الخ ، ولكن النفوذ الثقافي الفرنسي السابق على الانتداب اصبح اكثر كثافة بطبيعة الحال بعد مجيء الانتداب ، واصبح المجتمع اللبناني يعيش فرنسيا في بعض شرائحه فانتج ذلك نوع القيادات الموجودة الآن ، والموجودة حتى الاحتكار ، على الساحة السياسية اللبنانية ، فاغلبهم خريجو اواخر العشرينات وبداية الثلاثينات اي بعد مرور اكثر من عشر سنوات على حكم الانتداب . وهذا لا يمنع ، بطبيعة الحال ، ان يكون الشيخ بيار الجميل وريمون اده هما من مواليد مصر حيث كانت الهجرة الى مصر ظاهرة بارزة في بداية القرن العشرين بالنسبة لقطاع كبيرة من اللبنانيين ذوي الكفاءات المهنية او الراغبين في التحصيل ، او اللاجئين الى النفوذ الاجنبي المعادي للسلطة العثمانية .

وعند انبثاق الحلف الثلاثي ، العام ١٩٦٨ ، كان ذلك ذروة تسلم الجيل الحالي للقيادات لمقاليد الزعامة المارونية .

فبيار الجميل وكميل شمعون وريمون اده ظهروا في ذلك الحين كما لو انهم كل المارونية ، لا ينازعهم في القيادة حتى فؤاد شهاب برغم امارته وبرغم نجاحه كحاكم وانجازاته ، وبرغم كونه قائد الجيش والمحنك في عدم ربط لبنان بالعرب والصامد ضد اي اتفاق عسكري لبناني - سوري على الحدود

الجنوبية ، وهو المطلب الذي كانت تطالب به سوريا على الدوام حماية لخاصرتها من الخنجر الصهيوني ، وكان الرئيس فؤاد شهاب يقول ببساطة ان الجنوب اللبناني مشكلة اكبر من ان تسلم للعرب ، وبشكل خاص الى السوريين .

كانت انعزالية فؤاد شهاب ، الذي كان يسمي الفرنسيين « اعمامنا » اشارة الى كون زوجته فرنسية ، غير مشبعة لكميل شمعون وبيار الجميل وريمون اده ، ونوع الانعزالية التي يمثلون فريمون اده هو صاحب الشعار الشهير :

حاربوا مثلث الرعب المؤلف من الشيوعية والصهيونية والشهابية !

فانعزالية شهاب هي دفاعية بشكل من الاشكال ، بينما المطلوب بعد هزيمة العرب في ١٩٦٧ هو انعزالية هجومية تقضي على ارتباط لبنان بالمنطقة العربية وتستأصل جذوة الثورة داخل لبنان وتضعفها خارجه وتطرح نفسها نموذجا للكيانية غير الوطنية وغير القومية في العالم العربي كله .

كان الجو اللبناني في ذلك الحين يسمح بانتشار الديماغوجية اليمينية المارونية ، فبقايا المكتب الثاني كانت تمثل ، القمع دون الاصلاح الذي اطلقت الحركة الناصرية مده في العالم العربي فانتكس بانتكاستها سنة ١٩٦٧ ، والثورة الفلسطينية كانت تدخل الى المجتمع اللبناني صورة الثوري المسلح التي لا تستسيغها تقاليد الليبرالية وتراثها في لبنان ، والحركة الوطنية كانت خارجة من البراد الشهابي ومن التفويض المطلق للرئيس عبد الناصر ولفؤاد شهاب بملاحقة الاماني الوطنية والقومية . وكانت خارجة بنوع خاص من الحملة على الاحزاب والحزبية الرائجة في ذلك الزمن بتوجيه الانقلابات العسكرية فهيأت هذه العوامل كلها ، مضافا اليها تأجج المطالب الاجتماعية الجو للتحريض اليميني العنيف على يد الحلف الثلاثي .

اما على الصعيد العربي فكانت هزيمة ١٩٦٧ العسكرية ، وكانت الردة ، وكان تجرؤ الانظمة المحافظة والنفطية خاصة ، حتى على اكثر الانظمة ثورية لحاجة هذه الانظمة الى الدعم المالي والعسكري .

ومن ناحية الفكر العقائدي شكلت هزيمة ١٩٦٧ شبه انفجار قذف اليسار الى طراز من التصرف مشحون بالمغامرة بقدر ما هو مشحون بالعاطفة الملتهبة ، كما قذف اليمين الى طراز من الفاشية المتعصبة والذاهبة في عدائها للافكار الوطنية والقومية والاجتماعية الى حد الاستعداد لمقاتلتها بالعنف

وسط هذه الظروف انطلق بيار الجميل وعليه طابع العقائدي المتصوف ، وكميل شمعون وريمون اده شهيدا الاجهزة الشهابية يطالبون بالحكم كاملا ويطرحون برنامج المارونية السياسية كحل للخطر اليساري والفلسطيني الداخلي والخطر العربي القومي الخارجي .

وبمعنى من المعاني كان برنامج المارونية السياسية المطروح مع الحلف الثلاثي حلا بنظر الموارنة وبنظر التخلف العربي ايضا . فالمأزق الذي كان يعيشه باستمرار طرفان متباعدان في المظهر منسقان بالحقيقة لم يكن بالاستطاعة حله الا بالشكل الذي انفجرت فيه ثورة المارونية عام ١٩٧٥ في عهد الرئيس فرنجية ، وبقيادة « الجبهة اللبنانية » .

المنظرون الاربعة للمارونية السياسية

ليس من قبيل الصدف ان يجلس اليوم الى جانب القادة الموارنة الاربعة لـ «الجبهة اللبنانية» ـ شمعون وفرنجية والجميل وشربل قسيس ، ممثل المواقع الثقافية والاقتصادية للمارونية السياسية في القيادة ـ مثقفون قياديون ينتمون الى الجيل نفسه الذي برز منه الزعماء السياسيون ، فهم سواسية في النشوء والترعرع في ظل هيمنة الثقافة الانتدابية ، وسواسية ايضا في تمثيل ذروة النجاح للتوجيه الثقافي القديم في لبنان قدم العلاقات الغربية ـ المارونية .

فادوار حنين وفؤاد افرام البستاني وجواد بولس وشارل مالك قد يكونون اصلح النوافذ للاطلاع على فكر المارونية السياسية وسيرة هذا الفكر وجهاده المستمر في ابراز الخط الماروني السياسي في وجه التراث العربي القومي واليساري عموما .

دخل ادوار حنين السياسة واصبح نائبا من نواب الكتلة الوطنية ، من باب بروزه كأديب يجيد صناعة الكلمة العربية على اسلوب الاديب اللبناني امين نخلة ، وعندما اطل الاستقلال عام ١٩٤٣ مثل مع مجموعة من المثقفين والكتاب اعتراض المثقف الماروني على سياسة الاستقلال عن فرنسا والمضي في طريق التعاون العربي ، وقد اجتمع هؤلاء في مجلة « المكشوف » التي اعيدت الى الصدور بعد الاستقلال لغاية معينة هي محاربة الخط الذي تسير به السياسة اللبنانية الرسمية ، فكان قلم ادوار حنين الى جانب قلم « ابو الحن » (فؤاد حداد) وقلم فؤاد حبيش ، يجتهد في التأكيد من ضمن خط اميل اده السياسي على ان اللبنانية الصميمة هي ضد الخط الجديد ، وان من الخطأ

عدم التفريق بين اللبناني الصميم واللبناني غير الصميم ، وان لبنان في البداية والنهاية هو الجبل وشعبه هم الموارنة ، وان حب فرنسا هو من صميم وطنية اللبناني .

وكان يؤازر هذه الاقلام في تلك الحقبة صلاح لبكي كاتب الافتتاحيات في « البشير » واول رئيس لـ « اهل القلم » في لبنان ، خلفه في الرئاسة ادوار حنين . كما كان يبرز بين الحين والآخر سعيد عقل بقامته الشعرية والادبية العالية ، وقدرته على صياغة الطروحات ذات الجاذبية بالنسبة للعصبية المارونية ونجيب الدحداح في كتاباته باللغة الفرنسية في جريدة « الاكسيون » الكتائبية .

وقد اتاحت الحرب الاخيرة لادوار حنين ان يثأر هزيمته الفكرية في صدر الاستقلال بالتربع كاتبا اول للجبهة اللبنانية يصوغ بياناتها وينطق بالكلمة الانعزالية كاملة بقوله مرة في مقال شهير « ان لبنان كل مرة كان يستقل كان يهتز ، وكل مرة كانت تحميه حماية كان يعتز » .

والرابطة الوحيدة التي تشد ادوار حنين الى العرب هي اللغة العربية التي يجيدها ويجودها تجويدا فيه مباهاة « الشعوبي » بقدرته ومزايدته في البلاغة تكريسا لظاهرة معروفة في التاريخ العربي قديما وحديثا ، ولها في بلاغة « العمل » والكتاب والخطباء الكتائبيين ابرز الادلة .

اما فؤاد افرام البستاني فهو تلميذ الاستشراق اليسوعي البار ، عمل مع المستشرق الاب لامانس وحفظ تعاليمه في التقليل من اهمية المساهمة الاسلامية والعربية في حضارات المنطقة ، وتجند لكتابة التاريخ الانعزالي الرسمي في كتب مدرسية كانت وما زالت معتمدة وفيها تأكيد على شخصية لبنان التاريخية « المميزة » ونفخ لرجال الاقطاع على امتداد التاريخ ، كما فيها ابراز للعلاقات الوثيقة بين الموارنة والصليبيين وتضخيم للفتن الطائفية ، ودعوى ان الانسان الاول كان لبنانيا ، وان البرلمانية والديمقراطية نتاج لبناني متحرر من ايام الفينيقيين .

وطبعا ليس في تاريخ فؤاد افرام البستاني شيء اسمه الحقبة العربية ، فالعرب غزاة وموجة بربرية سرعان ما انحسرت من لبنان .

وقد تولى فؤاد افرام البستاني الجامعة اللبنانية وصرح لاحد الصحفيين الفرنسيين انه انما عين في رئاسة الجامعة لمنع تطورها ، فهو لا يؤمن كالمجانين بامكانية قيام غير الجامعات الاجنبية .

ويقول احد الطلبة في الجامعة اللبنانية حسب محاضرة للاستاذ حسن مشرفية انه دخل مرة مكتب رئيسها فوجد فؤاد البستاني وادوار حنين يكتبان نص منشور ضد المطالبة بانشاء كلية الحقوق في الجامعة اللبنانية يوم اثيرت هذه القضية ، واضرب من اجلها الطلاب .

وفؤاد افرام البستاني من عائلة البستاني المخاصمة تقليديا لكميل شمعون ، وقد كانت الخصومة اشد ما تكون عندما كان كميل شمعون يسير في السياسة الاستقلالية وينادي بالوجه العربي للبنان ، ثم ذابت هذه الخصومة بان استخدمت الشمعونية السياسية البستانية الثقافية لمصلحتها واصبح فؤاد افرام شمعونيا حيث كان يجب ان يقال ان شمعون هو الذي اعتنق البستانية .

اما جواد بولس فقصته مع آل فرنجية شبيهة بقصة فؤاد افرام مع كميل شمعون ، كان آل فرنجية هم الاستقلاليون وهم العرب وهم الانكليز ، كما كان يقال عنهم في زغرتا ، في حين كان جواد بولس هو اللبناني الصميم وهو المتحفظ على الاستقلال وهو الفرنسي .

وقد كان جواد بولس وزيرا في حكومة ايوب ثابت عام ١٩٤٣ التي اصدرت مشروع قانون انتخابي يعطي ثلث المقاعد للمسلمين والثلثين للمسيحيين فثار المسلمون على هذا المشروع واعتبروا المحاولة مورنة نهائية للبنان ونظروا الى اعطاء مقاعد للمغتربين على انه نوع من المؤامرة عليهم ،

وبقوة المعارضة الاسلامية وبتأييد الانكليز عدل المشروع وطارت حكومة ايوب ثابت واستقرت المعادلة في عهد بترو طراد على نسبة ٥ للمسلمين و ٦ للمسيحيين ، وهي المعادلة السابقة للميثاق والمعبرة عن مفهومه للتوازن الطائفي في لبنان .

الا ان لجواد بولس وجها اخر هو وجه الباحث في التاريخ الذي كتب الاف الصفحات في التاريخ ليثبت ان الجغرافيا وحدها على حق وانها هي في النهاية لا التاريخ صانعة المصائر والشعوب ، وهو بهذا يلامس نظريات العلماء الاوروبيين العنصريين الذين اكدوا على الجغرافيا ليحصروا في مناطق معينة من العالم وحدها امكانية ظهور « الشعوب المختارة » .

وشارل مالك اورثوذوكسي واميركي الثقافة ، ولكنه في المجتمع السياسي الماروني يطل اطلالة المعقد المزايد ، فلكي يؤكد مارونيته تبدو هذه المارونية اشد ضيقا وتعصبا من مارونية سواه ، واستسلامه لاهوتيا وفكريا للكاثوليكية مطلق .

وتتلخص دعوته بان اعتناق الكاثوليكية هو الامارة الاساسية لاخلاص المرء للحقيقة الفلسفية ، وقد كان طلابه في الجامعة الاميركية يدخلون الى الصف ارثوذوكسا ودروزا وشيعة ويخرجون كاثوليكا، ويبقى هو على هويته الاورثوذوكسية مدخله الوحيد الى عالم المناصب والمراكز في لبنان .

اما دعوته في السياسة فهي ان اللبنانية لا تكتمل في شخص الا باعتناقه المسيحية ، اذ ان كل مسلم يبقى مشكوكا بلبنانيته حتى يتخلى عن اسلامه ويدخل اللبنانية بمقوماتها الكاملة وابرز هذه المقومات واهمها هو الدين المسيحي ، فالمسيحية دين والمسيحية حضارة والمسيحية طريقة في الحياة ، واللبنانية الحقة تشترط توفر ذلك في اللبناني .

وبهذا المعنى يمكن القول ان هناك « مالكية » في السياسة اللبنانية ، اي النظرية التي تقول انه على المرء ان يكون مسيحيا حتى يكون لبنانيا .

وقد ظهر شارل مالك في عالم السياسة مساجلا لانطون سعاده الذي دعاه لانتهاج نظرة اجتماعية في السياسة فرفضها شارل مالك وآثر عليها النظرة اللاهونية الغيبية ، ثم لمع مالك بعد ذلك في « جمعية حوض البحر الابيض المتوسط » التي كان فيها الى جانبه ميشال شيحا وشارل حلو وغيرهما ، داعية لجعل لبنان بلدا مسيحيا اوروبيا متجها الى البحر اي الى الغرب ، منفصلا عن الصحراء اي العرب .

وارسل شارل مالك الى الولايات المتحدة اول سفير للبنان فجعل من نفسه رجل الحضارة الغربية في الامم المتحدة .

باسم هذه الحضارة يهاجم مندوب الاتحاد السوفياتي ، وباسم هذه الحضارة يرفض دخول الصين للامم المتحدة ، وباسم هذه الحضارة اخيرا يشارك في وضع وثيقة الانسان من زاوية اعطاء المسلم في البلاد العربية حق تغيير دينه اذا شاء فيعترض غيره من مندوبي الدول العربية دفاعا عن الشرعية وتحصل فضيحة يظهر فيها الاسلام هناك بمظهر الدين الرجعي .

ويستعين كميل شمعون عام ١٩٥٨ بشارل مالك وزيرا للخارجية فينظر مالك لدخول لبنان مشروع ايزنهاور ويعتبر الحياد مستحيلا بـ الشرق والغرب ، ويهاجم اليسار العالمي ويدفع عهد شمعون الى مزيد من المشاكل مع العروبة داخل لبنان وخارجه .

وتأتي الحرب الاخيرة فتبرز الحاجة الى مواهب شارل مالك في « جبهة الحرية والانسان » تلك الجبهة التي نشأت لمحاولة اعطاء المارونية السياسية وجها حضاريا غير الوجه الذي برزت فيه اثناء الفتنة .

ومجيء هؤلاء الاربعة الى جوار القيادات السياسية يعكس من الناحية التاريخية شعورا بالعجز عند المارونية السياسية في الاحتفاظ بالعقول الحرة الى جانبها داخل البيئة المارونية ، والى حد بعيد يمكن القول ان في اساس هذه

الحرب الاهلية مشكلة ثقافية هي تكاثر عدد المسيحيين الموارنة الذين يفكرون في الامور العامة من منطلق يساري او ديمقراطي على قاعدة الازمة الاقتصادية ، مما ادخل في روع المارونية السياسية ان الخطر اصبح داخل البيت وان عليها بكل الوسائل ان تدعو الموارنة الى الانضباط العصبي ، فجاء هذا الانضباط ليحقق التقسيم الواقعي الوحيد من عدوى الافكار الاتية لا من عقائد المسلمين والفلسطينيين السياسية فحسب ، بل من ضمائر المسيحيين التقدميين وثقافتهم المستنيرة ايضا .

وكأن الزعماء الموارنة يريدون ان يقولوا للمثقفين الاربعة الذين معهم : كيف السبيل الى خلق عقل ماروني محصن نهائيا وبشكل كامل في وجه هذه الافكار الهدامة التي بدأت تعصف في مجتمعنا ؟

وجاء الجواب مساهمة فكرية وثقافية صارخة تؤكد من جديد ان الفكر الذي يقبل ان يكون خادما للعمل المنحرف يضع نفسه دون هذا العمل ليمثل اسوأ ما فيه ويكون اسوأ منه . لان العمل اي عمل لا يخلو من مواجهة حرة للحياة بينما التنظير للعمل السيء هو العبودية بعينها .

الدولة الاخرى

أو مواقع القوة للمارونية السياسية

عاملت المارونية السياسية اقتراب فؤاد شهاب من فكرة بناء دولة بسلبية ظاهرة . فمشروعها ليس بناء دولة ، وانما هو بناء نفسها ، في الدولة وخارج الدولة ، بالتعاون مع الدولة وضدها ـ لا فرق .

واحد اسرار قوة المارونية السياسية انها سخرت الدولة ، ولكن الدولة لم تستطع ان تسخرها ، بل انها ، بالعكس ، بنت دولة خاصة بها باصرارها من خلال افكار الحرية الليبرالية والازدهار والامتياز الحضاري على موضع « البعيد القريب » بالنسبة الى الدولة .

وقد استطاعت ان تنجح في صد كل التيارات باستنادها الدائم على مواقعها الاربعة : البطريركية ، والرهبانيات ، والجيش ، والرؤية الاقتصادية ، والرؤية الثقافية .

أ ـ البطريركية والرهبانيات

ليست البطريركية الوجه المظلم لما يدعى بـ « المارونية السياسية » وان كانت الوجه الاكثر تماسكا واستمرارية فالواقع انه منذ قيام لبنان الكبير العام ١٩٢٠ عرفت بكركي اربعة بطاركة ، الحويك ، ثم عريضة ثم المعوشي واخيرا خريش .

الحويك هو الابرز في السلسلة ، فقد كان بالدور الذي لعبه قبيل مجيء فرنسا الى لبنان احد اصحاب الادوار البارزة في التمهيد لها . وهو اللبناني

المشارك في صنع قرار توسيع حدود جبل لبنان حتى حدوده الحالية ومواقفه حتى ساعة موته كانت الى جانب السلطة الفرنسية بل انه خطأ اخاه سعد الله حين اراد القيام ببادرة فدرالية تجاه سوريا واستقلالية عن فرنسا ولكن الحويك لم يكن تابعا للفرنسيين بشكل مطلق فهو كما هو معروف صاحب العبارة الشهيرة : « فرنسا كالشمس يا حضرة الجنرال تنير من بعيد وتحرق من قريب » وعندما جاء الجنرال ساراي الى لبنان واراد ان يمارس علمانيته في التعامل مع البطريركية وقف البطريرك في وجه فرنسا بقوة ، والمفارقة ان الشعور الوطني عند المسلمين نصر البطريرك لمجرد وقوفه في وجه فرنسا .

اما البطريرك الثاني ، عريضة ، فهو على ضعفه صاحب سجل ايجابي مع النزعة الوطنية في لبنان . فبالاضافة الى موقفه عام ١٩٤١ في مؤتمر الطوائف وموقفه العام ١٩٤٣ في معركة الاستقلال عادى الانتداب وشركاته وابرزها شركة الريجي ، واتصل بالوطنيين السوريين حتى نادت الجماهير في دمشق تهاجم رئيس جمهوريتها العميل وتمتدح البطريرك الماروني وتقول : الشيخ تاج عدو الله والبطريرك عريضة حبيب الله . واصدر عام ١٩٣٦ الكتاب الاخضر الذي اخذ على الفرنسيين مخالفتهم مهمتهم الانتدابية في لبنان وخروجهم على صك عصبة الامم .

وصحيح انه ايام البطريرك عريضة كانت البطريركية لا البطريرك هي الاساس من خلال الدور الذي كان يلعبه المطران عبد الله الخوري في الفترة الاولى والمطران معوشي في المرحلة الاخيرة الا انه لا يمنع من شهادة ايجابية بحق البطريرك .

اما البطريرك الثالث فهو البطريرك معوشي ، وكان تعيينه مباشرة من قبل البابا وبه بدأت سابقة اعتبرت آخر مظهر عملي واكمل مظهر من مظاهر عضوية المارونية في الكنيسة الكاثوليكية العالمية .

والجزء الاول من ولايته كان مشرقا من حيث علاقته بالحركة الوطنية في لبنان حتى سمي «بطريرك العرب» وهو اللقب الذي اطلقه فيصل الاول على بطريرك الارثوذكس الشهير غريغوريوس حداد عندما دخلت قوات فيصل الى دمشق بعد هزيمة تركيا عام ١٩١٨ .

والموقف البارز من مواقفه كان موقفه ضد شمعون وخصوصا اثناء حوادث١٩٥٨ فقد هاجم بشجاعة الرأي السياسي الاكثر رواجا بين الموارنة واعتبر سياسة الرئيس شمعون مصيبة على لبنان وعلى الموارنة واكد ضرورة وضع سياسة التعايش الاسلامي المسيحي فوق اي اعتبار آخر ، وبلغ به الميل الى المعارضة حد ان المعارضين انفسهم انزعجوا فارسل بعضهم للبطريرك من يقول له بواسطة الجنرال فؤاد شهاب ليؤيدنا البطريرك وهو مشكور شرط ان يبقى بطريركا .

ولكن المعوشي انتقل الى عدو صريح لعبد الناصر انطلاقا من توصية ارسلها اليه ولم يعمل بها عبد الناصر في موضوع المدارس الكاثوليكية في مصر . وفي هذه الحادثة مغزى كبير هو ان البطريرك ذهب في هذه التوصية وفي ما تلاها الى أبعد موقع من مواقع التطرف السياسي الماروني اذ تصرف على اساس حق المارونية في قيادة المسيحية العربية في كل مكان . وكان البطريرك صاحب الموقف الاشد قسوة على كل رأي تقدمي داخل الكنيسة وخارجها ، وبلغ به التصلب حد عدم الاخذ بمقررات المجمع المسكوني عندما انفتح الفاتيكان ايام يوحنا الثالث والعشرين على الاديان والافكار والقضايا الاجتماعية والوطنية وعندما اراد ان يجعل من الكنيسة املا للفقراء .

اما البطريرك خريش فبوجه اللاعنف الذي اطل منه على القضية اللبنانية اثناء السنتين الداميتين ابقى لكرسي البطريركية مكانتها المعنوية في صفوف اللبنانيين عموما ، من مسلمين ومسيحيين على حد سواء واسهم في وقف رياح التقسيم العاصفة ولكن البطريرك ذهب الى اوروبا شاكيا على الفلسطينيين

والعرب اجمعين وصور لبنان للعالم على غير حقيقته فقال بالامة المارونية ونفى صفة لبنان العربية وساهم هناك كما سيكشف التاريخ في التحريض على ارسال قوات الطوارىء الدولية . وبالتحديد الدور الفرنسي داخل هذه القوة . فخريش جاء بفرنسا عام ١٩٧٨ كما جاء بها الحويك عام ١٩١٩ .

وهكذا لم يقطع البطاركة خط العلاقة مع المسلمين داخل لبنان ومع العرب ومع النزعة الوطنية نفسها . وكانوا يفضلون ان تبقى هذه العلاقة متصلة باستمرار . ولكن هذا الموقف هو بذاته احد المواقف الاستراتيجية للمارونية السياسية ، لأن البطريرك في مفهوم المارونية السياسية هو بطرك لبنان واللبنانيين وليس بطريرك الموارنة ، كما ان الموارنة هم اللبنانيون .

لذلك من الحكمة ان يبقى امام البطريرك هامش يحافظ به على خيط معاوية ويشد به المسلمين والعرب الى لبنان الماروني ، فالمارونية السياسية تدرك ضرورة الاعتدال في موقف بكركي خشية من ان تفقد البطريركية رعاياها السياسيين اي المسلمين المستعدين تبني مواقف المارونية السياسية وافكارها الاساسية ، فالبطريرك مسموح له كرئيس الجمهورية مثلا ، ان يراعي باكثر مما هو مسموح لماروني آخر ان يفعل لأن الكرسي التي يجلس عليها هي في النهاية للمارونية السياسية وكل قوة تكسبها لموقف الاعتدال هي قوة للمارونية .

ثم ان بكركي ليست كل الاكليريوس الماروني ، فالى جانبها على سبيل المثال مطرانية بيروت التي تلعب هي الاخرى دورا سياسيا وثقافيا بارزا منافسا للبطريركية في بعض الاحيان عن طريق مؤسستين من مؤسسات المارونية الفعالة الاولى مدرسة الحكمة بما تمثل على صعيد التعليم ونشر الايديولوجية المارونية والثانية هي كاتدرائية مارجريس بما هي المنبر الاكثر شرعية للتبشير الديني والسياسي في لبنان .

ومطارنة من امثال المطران اغناطيوس مبارك واساقفة من امثال يوحنا مارون وبعده اغناطيوس مارون يعطون فكرة عن الدور البارز الذي يمكن ان تلعبه مطرانية بيروت وادارة مدرسة الحكمة واغناطيوس مارون مدير معهد الحكمة العالي على سبيل المثال هو رئيس رابطة المدارس الكاثوليكية التي تشكل معقلا من معاقل الثقافة التي وقفت تاريخيا ضد جميع مشاريع توسيع التعليم الرسمي ، اما يوحنا مارون الذي ادار معهد الحكمة في فترة وكان مسؤولا عن كاتدرائية مار جريس فهو احد اكبر شخصيات المارونية السياسية الذي اتى بالاونيسكو الى لبنان في عهد بشارة الخوري وهو الذي اتى بالاب لوبريه ليضع تقريره الشهير في عهد فؤاد شهاب وهو اخيرا احد الذين ربطوا البطريركية المارونية والاكليروس الماروني باكثر المؤسسات الثقافية في العالم وربما السياسية ايضا ، ومن المفارقة ان رجل المارونية هذا قد قتلته رصاصة من حاجز في محلة التباريز .

اما الرهبان فهم اكبر قوة تعليمية في لبنان . ويشكلون من هذه الناحية قاعدة الرجحان الثقافي للاوساط المسيحية المارونية بشكل خاص : فالراهب متفرغ يعمل بلا أجر لا لمصلحة طائفته فحسب بل لمصلحة الطائفية السياسية وغير السياسية داخل هذه الطائفة وبروز الاباتي شربل قسيس بين زعماء المارونية الاربعة هو انعكاس للدور الذي تلعبه الرهبانيات على صعيد بقاء التوازن اللبناني لمصلحة المارونية وعندما اصبح هذا التوازن في خطر بدأ ممثل الرهبانيات يلعب الدور الهام في المعركة وهو دور مالي باعتبار ثروات الاديرة الكبيرة ودور تعبوي باعتبار قوة الرهبانيات كجهاز تعبوي له دور سياسي في العلاقات مع الفاتيكان ومع الكنائس والرهبانيات الغربية . وقد انقرض عمليا الاقطاع الزراعي في لبنان وخصوصا في الجبل ولكن بقيت الرهبانيات هي الاقطاعي الزراعي الوحيد تقريبا معطية الرمز الاوضح لحلف الاقطاع والطائفية بكل تكاملها تكاملا يميز لبنان المصنوع على صورة المارونية السياسية ومثالها ، ففي لبنان وخصوصا جبل لبنان انطبقت القاعدة

الكيمائية التي تقول : كل شيء يتحول فقد تحول رمز الاقطاع الزراعي الى اقطاع سياسي ارضيته النفوذ السياسي من وساطة الى تنفيع الى توظيف . كل شيء تحول ما عدا ألرهبانيات وربما ليس من الصدف ان الاباتي شربل قسيس هو المسؤول المالي « للجبهة اللبنانية » فقد يفترق المال عن السياسة عند كل الناس ويبقيان مجتمعين في الراهب .

ب ـ الجيش

تنظر المارونية السياسية الى الجيش باعتباره ضمانة دائمة مستقرة لبقائها في وضع العصبية الحاكمة في لبنان فالجيش هو ضمانة المارونية ضد مصادر خوف عديدة : ضد النمو العددي في المناطق الاسلامية . وضد حركة الاحزاب التقدمية والوطنية ذات الامتداد الشعبي بين المسلمين والامتداد الفكري بين مثقفي الجبال . وضد تحول الكنيسة نفسها الى مؤسسة متطورة اذ ظهرت في مراحل معينة تيارات داخل الكنيسة المارونية تبعث على الاحتياط والتحسب . وضد انهيار الميثاق الوطني بانعطاف احد الفريقين اللبنانيين نهائيا نحو اليسار ، فيصبح الميثاق محك تعاون بين الايديولوجيتين بدلا من ان يكون محك تعاون بين طائفتين تحكمهما ايديولوجية واحدة ،، وضد نمو القوة العربية والثروة العربية وحركة التحرر العربي الطامحة في النهاية الى استخدام الديمقراطية اللبنانية والتجند الكامل في المعركة ضد الصهيونية .

ولمقاومة كل هذه الاخطار حرصت المارونية السياسية على جعل الجيش اللبناني « جيش نظام لا جيش وطن » مهمته ان يبقي للمارونية السياسية دورها الاول في السياسة اللبنانية . وفي جملة مقومات جيش النظام ان تكون قيادته لماروني اي لواحد من ابناء تلك الطائفة التي يتحد فيها مفهوم الولاء

للوطن بمفهوم الولاء للنظام اتحادا كاملا فالماروني السياسي هو ماروني اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وعسكريا لا ماروني طائفة وحتى مذهبا سياسيا .

والصدفة هي التي جعلت قيادة الجيش لامير مرتين ، ولكنها صدفة توحي بفتح نافذة الى صميم تركيب الجيش نفسه فالجيش اللبناني يشبه في بعض النواحي « الامارة » من حيث ان القائد مطلق الصلاحية والاخرين على اختلاف مراتبهم « رعية » فمنصب رئيس الاركان على سبيل المثال منصب شبه بروتوكولي والقائد هو الذي يعين مفتش الجيش خلافا لكل قوانين العالم العسكرية .

وقد كان هم المارونية السياسية الاساسي في الجيش ان تحصنه ضد رياح التغيير الاتية من وثبة الجيوش في العالم العربي لتسلم الحكم . وعلى هذا الاساس يجب فهم الشدة التي عومل بها انطون سعادة نفسه الذي اعدمته المارونية السياسية لا بسبب الاعمال اللاشرعية التي قام بها حزبه هنا وهناك ، بل بسبب اتصاله بحسني الزعيم مفتتح مسلسل الانقلابات العسكرية العربية .

بل على هذا الاساس يجب ان يفهم التشدد ايضا مع المحاولة التي قام بها فؤاد عوض وشوقي خير الله بالاتفاق مع السوريين القوميين .

الا ان الجيش لم يستطع ان يحافظ تماما على مناعته ضد الانقلابات العسكرية ، لأنه في الواقع فشل السوريون في انقلابهم لينجح بدلا منهم انقلاب آخر هو الانقلاب الشهابي . فقد كان دخول القوميين الى السجون ايذانا بتسلم الشهابيين كل شيء في الجيش .

والانقلاب الشهابي نوع خاص من الانقلابات العسكرية في العالم العربي . هو انقلاب بديل عن الجيش اكثر مما هو انقلاب لتمثيل الطبقة

الاجتماعية والمفاهيم التي تمثلها الجيوش في العالم الثالث ، فالانقلاب جرى على قاعدة انه كي لا يتدخل الجيش في السياسة لا بد من ان يلعب دورا فيها . وكان يستند الى نشاط سياسي يقوم به المكتب الثاني ، وفحواه مطالبة الجيش بتسليم الشهابيين السلطة داخله على اساس ان الناس خارج الجيش لا يقبلون الا بالشهابيين ومطالبة من هم خارج الجيش بقبول الشهابيين باسم الجيش ، وهكذا حكموا الشعب باسم الجيش والجيش بأسم الشعب

وكان المحصل في النهاية ان الجيش اللبناني بقي « كطبقة » جديدة خارج اللعبة السياسية اللبنانية ولم يلعب الدور الذي لعبه امثاله في البلدان المحيطة به . وهذا هو النصر الاساسي الذي حققته المارونية السياسية في موضوع الجيش اذ ابقته جيش النظام بكل معنى الكلمة .

اما النصر الاخر فهو نجاح الجيش في مختلف الحروب العربية التي حصلت في البقاء خارجها مؤكدا مقولة المارونية السياسية الاساسية وهي ان الاقتراب من العرب خطر على الكيان وان الضمانة كل الضمانة في الاجنبي وحده .

واقرب حادثة جرت في تاريخ الجيش الى معنى المقاومة الوطنية عندما نزل بحارة الاسطول السادس الى بيروت العام ١٩٥٨ في ذلك الوقت ظهر بين الضباط من وجه مدافعه الى الجنود الاميركيين وكاد اطلاق النار يحصل لولا تدخل اللواء شهاب شخصيا في آخر لحظة وذهابه بشخصه لاستقبال القائد الاميركي والمرور به سالما تحت مرمى المدفعية اللبنانية . واهم من هذه الحادثة شرح الرئيس شهاب لموقفه في ذلك اليوم حيث قال لاحد اصدقائه : تساءلت في نفسي ساعة من الزمن هل اقاوم ام لا ؟ ثم اجبت : عدم المقاومة افضل لأن استشهاد يوسف العظمة البطولي وان كان قد افاد في سوريا باعتباره عزز الروح الوطنية الا انه لا يمكن ان يفيد في حالة مثل حالتنا لأن الجيش الاميركي كان سيتدخل في تسلم السلطة بقدر ما نتدخل نحن في

مقاومته ، فاذا سالمناه سالمنا . وتعليق الصديق على ما سمع اهم من الحادثة ومن قول الجنرال لأن الصديق قال : سمعت اللواء شهاب يلفظ كلمة يوسف العظمة ، وانا لا اصدق احقا في الجيش اللبناني شخص يعرف اسم يوسف العظمة ويذكره بالخير ويطرح استشهاده كأحد الاحتمالات التي يمكن ان تخطر على بال .

لكن الجيش الذي بناه الفرنسيون كجزء من كل يشمل السوري واللبناني معا،وتعهده بكفاءة فؤاد شهاب ومحافظته عليه بعد الاستقلال ـ الانفصال بعيدا عن العواصف الهوجاء ليكون احتياطي المارونية السياسية انما بني على اساس الكوكتيل اللبناني نفسه فكان لا بد مع هبوب العاصفة ان يتحول الى مجموعة من الجيوش وينتهي بنشوئها اهم رموز لبنان الواحد .

فخلفاء فؤاد شهاب في قيادة الجيش ووجهوا بمشاكل متنامية تطال كل شيء حتى الهوية الوطنية وكان ذلك يجري في مناخ اشد انقساما من مناخ ثورة ١٩٥٨ .

ومن احساس المارونية السياسية بأن الجيش يتباطأ عن القيام بدوره الاساسي واحساس المسلمين بان وجودهم في الجيش لا يتعدى مصدر الرزق واكمال العدد وانهم باتوا بحاجة الى جيش بديل قد يجدونه في المقاومة الفلسطينية ، ومن احساس الاسلام السياسي بان قائد الجيش اقوى دائما من رئيس الحكومة تشكلت قنبلة التناقضات في ملف الجيوش التي انفجرت بمجرد اقدام اسكندر غانم على اتخاذ القرار السياسي الماروني العام ١٩٧٣ ببدء انحياز الجيش العملي للمارونية السياسية .

واقترح لتفادي المعضلة والحفاظ على المساومة التاريخية في الجيش انشاء مجلس قيادة له تتمثل فيه الطوائف الاخرى ، وينحسر معه التفرد الماروني باتخاذ القرار السياسي لكن الامور بلغت حدا تجاوز امكانية الوصول الى مساومات فاحترقت كل الجسور وانتهى الامر بنشأة جيش يقاتل مع المقاومة

الفلسطينية وآخر يقاتل مع اسرائيل وثالث يتردد في هذا ورابع يتردد في ذاك ، وخامس يطمح لاستعادة الماضي « الحيادي الابيض » وسادس يطمح الى تحويل قوات « الجبهة اللبنانية » الى جيش رسمي على اساس ان هذا ينهي الفصام بين الشكل والمضمون .

لقد كان على جيش لبنان ان يدفع من كيسه ثمن سياسة المارونية السياسية في ابعاده عن الحروب العربية اي في ابعاده عن ذاته المفترضة ودفع الجيش ومعه البلاد كلها الثمن .

فلئن استطاع فؤاد شهاب ان يجمد الاوضاع في عهده ، فقد بدا ذلك مستحيلا بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، وكما جاءت ازمة انترا لتعلن فشل الاصلاحية الشهابية الاقتصادية جاءت حادثة المطار لترفع القناع العسكري عن الشهابية .

واتجهت الامور الى التفاقم بعد ذلك في ايار ١٩٧٣ ومن ثم في الانفجار الكبير لتقدم درسا بليغا لنهج المارونية السياسية في التعاطي مع المؤسسات عموما ، وهذه المؤسسة بالتحديد .

وكانت المارونية قد شككت منذ زمن طويل بقدرتها على سوق الجيش كاملا في معاركها ، ومنذ العام ١٩٦٨ نشطت لارساء القواعد لجيش شعبي ماروني بحت مؤلف من صيغة الميليشيات وكانت الكتائب اول البادئين لكن غيرها ايضا سار على الطريق ومنهم الرئيس سليمان فرنجية الذي انشأ جيش التحرير الزغرتاوي بروح الفزعة للصوت الماروني المنادي .

وفي عام ١٩٧٣ لم يبق عند المارونية اي شك بأن الجيش لن يكون قوتها الضاربة في الساعة التي تقرر ، فرمت ثقلها في تقوية الميليشيات وتوسيعها وابقت الابواب مفتوحة بين الميليشيات والجيش حتى اصبح الناس ولايزالون لا يعرفون اين يبدأ الجيش الشرعي واين تنتهي الميليشيات .

ج ـ المواقع الاقتصادية

المال الآتي من الغرب مقوم اساسي من مقومات المارونية السياسية ، وقد ساعد في تكوينها منذ القرار الدولي التاريخي الصادر في القرن السادس عشر بمساندة المشروع الماروني لشراء جبل لبنان من سكانه الشيعة .
وبمرور الزمن بدأ الغرب يفكر بالافادة الاقتصادية من لبنان ، ولكن ذلك ظل استثناء والقاعدة هي اعطاء لبنان لا الاخذ منه .
والمنطق الغربي في التعامل الاقتصادي مع لبنان كالتالي : اعطي لبنان لآخذ مقابل ذلك من العرب اصحاب السعة في الارض والغنى في الزراعة والطريق في التجارة والمواقع في الاستراتيجية ومؤخرا اضيف الى ذلك كله عنصر النفط والمعادن والقوة المالية بالذات .

لكن الغرب ، وهو يعطي لبنان ، كان يعطي على التحديد حركة المارونية السياسية التي تقضي مصلحة الغرب بان تكون صاحبة الكلمة الاولى والاخيرة والمستفيدة من الانجازات المختلفة التي يخلقها المال الغربي .

وقد بذل الغرب جهده دائما لأن لا يذهب اي جزء من مساعداته للبنان لغير المارونية السياسية وهو مثل المارونية السياسية لم يهتم حتى بالموارنة لأن المهم ليس الموارنة بل المارونية السياسية ، والموارنة مهمون بقدر ما يؤدي الاهتمام بهم الى خدمتها .

لذلك بقي القسم الاكبر من الموارنة بعيدين عن مال الغرب فبلادهم لا تزال تحمل اسم الجرود وهو الاسم الذي تفوح منه رائحة البكارة في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، من جرود الشمال الى جرود دير الاحمر الى جرود تنورين الى جرود كسروان ، فهذه كلها جرود يسكنها موارنة يعيشون في اوضاع شيعية بالمعنى الاقتصادي .

وكذلك تسمى مناطقهم « بلادا » وهي كلمة اخرى تعنى ما تعنيه الجرود من بعد عن حياة الدولة المركزية ، فبلاد جبيل ما كانوا يطلقون عليها لفظة « بلاد » لو لم تكن بعيدة عن البلد ، وبلاد البترون هي ايضا مارونية ، وبلاد بعلبك شيعية مارونية في جزئها المتخلف ، اما بلاد بشارة في اقصى الجنوب فقد انقرضت .

وبين « الجرود » و « البلاد » مقالع هجرة الرجال الانشط من وطن الارز الى الامبراطورية اللبنانية في المهاجر الاميركية وفي اوستراليا وافريقيا ، والى بيروت الكوزموبوليتية ، ومؤخرا الى جونيه ، والى ذلك الجيب غير المنتج اقتصاديا الذي هو الجيش اللبناني حيث يحتاج دوام الغلبة العسكرية المارونية الى غلبة عددية مارونية مستحيلة التحقيق بغير بقاء جزء من الموارنة فقراء ، فلولا وجود الفقر الماروني لما امكن ان تقيم المارونية السياسية جيش هيمنة المارونية .

والحرب الاخيرة شاهد على حاجة المارونية السياسية الى الفقر الماروني واعتمادها العضوي عليه . بارك الله في الفقر الماروني فهو وحده الذي يقاتل تحت لواء « الجبهة اللبنانية » ضد فقراء آخرين في الصف الاخر فلسطينيين نازحين من فلسطين ولبنانيين مهجرين من مناطقهم وفقراء في الاحياء والقرى الاسلامية بشكل عام .

و « الجبهة اللبنانية » تقول : في الحرب الاخيرة قاتل الموارنة كالفلسطينيين واكثر ، وبالفعل هذا هو الذي حصل ، ولكن تفسيره هو ان بعض الموارنة استمروا في الدولة التي اقيمت باسمهم ولمجدهم فلسطينيين ببعض المعاني .

فالماروني المقيم في فرن الشباك وسن الفيل والدكوانة وسد البوشرية وعين الرمانة هو بشكل عام ماروني غير ميسور ، انتقل الى بيروت هربا من قريته

ولم يستطع ان يسكن في بيروت هربا من غلائها فكانت هذه الضواحي الشاهدة على عيش المواطن الجبلي الاصل بين نارين .

والسرعة التي ولدت بها واحدة بعد اخرى هذه القرى المحيطة بمدينة بيروت تدل على سرعة التراكم المالي في ايدي الاغنياء من الموارنة الذين يتحكمون بالعصبية المارونية من خلال فكرة ومؤسسة ودولة المارونية السياسية او من الاغنياء غير الموارنة الذين تنطبق عليهم قاعده « اغنياء المسلمين نصارى »

فهم يسيطرون على الموارنة في حياتهم ، ويحاربون بالموارنة زمن الحرب .

والفقر الماروني ضروري للماروني السياسي لا لاغراض الحرب فقط بل ايضا وخصوصا لاشاعة الايديولوجية المارونية نفسها ، فالتخلف هو البيئة الوحيدة المستعدة لتقبل خرافات المارونية السياسية هذه الخرفات التي من دونها لا مارونية سياسية ولا عصبية لها ، ولا تغطية للسياسات الداخلية المعادية للانماء والسياسات الخارجية الخادمة للطبقات والدول على حساب الشعب .

وتقول المارونية للموارنة : انتم سريان لا عرب ، لكي يصدقوا يجب ان يكونوا متخلفين وهذا ما يفسر مفارقة واضحة في الوسط الماروني هو ان العائلات القديمة والنافذة والبورجوازية اكثر عروبة من القسم الاكبر من الجماهير المارونية لان هذه العائلات التي تعرف اصولها العربية وجذورها في المنطقة لا تبلع بسهولة مثل هذه الخرافة .

وفي كل قرية مارونية في لبنان مفارقة « الشيوخ العرب » و « الاهالي الجراجمة » .

وستقول المارونية للموارنة : « معكم الله والقديسين » ولكي يصدق الموارنة هذا القول يجب ان يبقوا متخلفين حتى يشموا بالانف رائحة البخور

تحتفل في سن الفيل بتقديس الاب شربل ، تعبيرا لرضا السماء على الموارنة وتعويضها لهم على ما خسروه في الحرب من الارزاق والاعناق .

وخوف المارونية السياسية الاول في الميدان الاقتصادي هو من اي شكل من اشكال التجذر الوطني في الاقتصاد لأن هذا التجذر يهدد في النهاية المفارقة الصارخة : المارونية السياسية الغنية والشعب الماروني الفقير .

فليس كل انواع الاقتصاد تلائم هذه المفارقة وتخدمها ، ومن هذا القبيل شطبت كلمة « وطني » كنعت للاقتصاد في اسم « وزارة الاقتصاد الوطني » فاصبحت « وزارة الاقتصاد » فقط لا غير ، اذ من المهم جدا الا يكون الاقتصاد وطنيا حتى بالاسم لا ن مثل هذه النعوت قد توجه الاذهان الى ضرورة الاهتمام بالزراعة والصناعة والانماء الريفي مما يتناقض مع نظام اقتصاد الخدمات « الخارجي » الحليف الدائم والمتين للمارونية السياسية والعدو للموارنة وغيرهم من الاكثريات المسحوقة .

وبالعودة الى فضل المال الغربي على المارونية السياسية منذ زمن بعيد ، يأتي التفسير بكون الموارنة حتى فقرائهم هم افضل حالا من بقية المواطنين من ابناء طبقتهم .

فالغرب ناصح لاصدقائه ، يوصيهم بالتفكير بالشعب احيانا اكثر مما يفعل الذهن المحلي المسيطر حين يكون حرا في ممارسة السيطرة ، وهذا واضح بالنسبة لتقبل المارونية السياسية على مضض مبدأ تكليف الاب لوبريه باجراء بعض الدراسات عن احوال المجتمع اللبناني الاقتصادية والاجتماعية والحضارية بشكل عام .

ولكي يقتنع الماروني الفقير بان لبنان للموارنة يجب ان يشعر بتميز بسيط له عن الفقير المسلم من ناحية اوضاعه المعيشية .

وبهذا المقدار فقط تطبق المارونية السياسية نصيحة العقل الغربي العلمي والعصري فلبنان هو لاغنياء الموارنة اولا ثم للموارنة ثم هو لبورجوازيات الطوائف الاخرى ، وكلهم ضروري لتكوين عصبية للكيان اللبناني ، هذه العصبية التي يشعر بها الماروني الفقير انه صاحب قضية تتجاوز مارونيته .

والمصلحة الطائفية البحتة عاجزة عن ان تلهب الخيال حتى في البيئات المتخلفة ، لذلك لا بد من ان تختبىء مصلحة المارونية السياسية في فكرة الكيان التي هي اوسع قليلا من طائفة واقل قليلا من وطن .

المال الغربي ليس بالضرورة في الغرب ، بل هو احيانا وفي السنوات الاخيرة دائما ، في الشرق ، والعروش العربية التي تدفع الجزية عن الغرب للمارونية السياسية ثم تدفع للغرب مباشرة او عبر المارونية السياسية .

والمال الغربي او العربي لا فرق تستقوي به المارونية السياسية في لبنان لتبني به دولتها وتقيم عليه امتيازاتها . والانعزال عن السوق العربية وعن الرساميل العربية لم يكن ولا يمكن ان يكون في يوم من الايام في خاطر المارونية السياسية لأن المارونية السياسية مؤسسة عاقلة بعكس المظاهر ، وهي من باب العقل تعود في النهاية لتسمع نصيحة الاجنبي المعتدل الغيور على مصلحة المارونية السياسية غيرتها على نفسها .

والنظرة التي تخلقها المارونية السياسية للاقتصاد الماروني العامل في ارض العرب هي نظرة يتمازج فيها الحسد والاحتقار ، وعندما يقترن الحسد بالاحتقار فالمولود هو حق النهب ، وتيار الاعتدال في المارونية السياسية يفوق في نزعته الاقتصادية تيار التطرف ، وهذا ما كان واضحا في طروحات ميشال شيحا واتجاهات عهدي بشارة الخوري وفؤاد شهاب ، بل في اوساط رجال المال والاعمال الموارنة ، بل والى حد بعيد في جزء هام من التراث الكتائبي

الذي صاغه موريس الجميل وبلورته الشهابية . فهؤلاء الذين يمثلون وجهة النظر الابعد في الحرص على مصالح المارونية السياسية يعرفون بالتجربة انهم قادرون على تحقيق اعظم الاستفادة من عالم عربي متخلف وغربي ، ويتذكرون ان قيام دولة اسرائيل قد افاد لبنان بتحويله الى المحطة الوحيدة في الوساطة بين الغرب والشرق العربي ، وان الرساميل العربية ما كانت لتهرب من بلدانها اثر انقلاب عسكري او ثورة شعبية الا الى لبنان وان الكوادر العلمية والفنية المارونية في الاقطار العربية قادرة على ضخ قدر كبير من الثروة الى لبنان ، ناهيك بحقيقة ان عالم المصارف اللبناني ما اتيح له ان يقوم وان يستمر لولا المال الماروني .

كان طبيعيا اذن ان يقترن هذا « الاعتدال » لدى المارونية السياسية برغبة عميقة في ابقاء العالم العربي متخلفا اما بعد الحرب فقد انحسر تيار الاعتدال هذا انحسارا كاملا لغلبة الحرب على السياسة وغلبة السياسة على الاقتصاد .

ومع ان « الجبهة اللبنانية » لم تبلور حتى اللحظة خطا اقتصاديا في علاقتها مع العالم العربي ، الا انه من المشكوك فيه اذا وضعنا فترات الحرب الجنونية جانبا ، ان نفكر بالانعزال عن الاقتصاد العربي .

فمعادلة الانفتاح على الاقتصاد العربي والانغلاق عن السياسة العربية تستمر على الارجح « مع الجبهة اللبنانية » حتى لو كان التقسيم واردا ذلك ان مواقع المارونية السياسية ازاء الغرب لا بد من ان تتعرض لضعف بالغ اذا ظهرت المارونية السياسية غير قادرة على العيش الا بالحقن الاميركية ، فعند ذلك تصبح الكلفة الاميركية اكبر من الاستفادة سيما وان الانفاق على اسرائيل واحدة في الشرق الاوسط كاف للولايات المتحدة .

د ـ المواقع الثقافية

ثمة في موضوع المارونية السياسية رهان هو ان التوجيه الثقافي قادر وحده تقريبا ان يصنع عقول الموارنة بشكل كامل ، وهذا الرهان ندر ان كان واضحا في حركة كما هو واضح في المارونية السياسية فالمارونية السياسية تصرفت وتتصرف على انها تستطيع ان تملأ عقل الماروني بالفكرة التي تشأ فهي تستطيع ان تقنعه ، على سبيل المثال ، بأنه غني وهو فقير ، وانه حر وهو غير حر ، وانه متميز ثقافيا وهو غير متميز ، وانه متفوق حيث لا تفوق ، وانه غير عربي وغير شرقي وان الاسلام هو دين العدو المتخلف وانه موجه بكليته ومتفرغ لعداوة المارونية ، وان الشيوعية هي خطر خاص بالموارنة والمارونية يغازل الجميع ويعقد الصفقات مع الجميع ويتآمر مع الجميع الامع الموارنة فهو العدو الدائم .

والرهان على قدرة التوجيه الثقافي على صنع العقل بحرية كاملة يشمل ايضا القدرة على اعطاء الماروني نظرة وعصبية في افريقيا مع الابيض ضد الاسود وفي آسيا مع الابيض ضد الاصفر ، ومع الاصفر ضد الاحمر ، وفي اميركا مع الشمال ضد الجنوب ، وفي اميركا اللاتينية مع كل ديكتاتور يمين ضد كل ثائر حتى ولو كان هذا الثائر رجل الدين المسيحي كاميليو توريس .

والتوجيه الثقافي هذا لا يرتبك ولا يشعر بأي حرج في ان يدعو في آن واحد الى كراهية الاسلام والايجابية نحو حركة الاخوان المسلمين ، والهجوم على مهد الاسلام وامتداح المملكة السعودية والطعن بمحمد والانتصار للهاشميين .

اما بالنسبة للحضارة الغربية ، فالتوجيه الثقافي هذا يدعو الى تقديسها في ما عدا واقعها الفعلي في دولها ومجتمعها . فايطاليا هي روما القديمة

والفاتيكان وموسوليني لا روما المحكومة بتحالف مسيحي ـ شيوعي ، وفرنسا هي فرنسا لويس الرابع عشر والجنرالات الفاتحون والانتداب وليست فرنسا ميتران او مارشيه او حتى ديغول .

واوروبا كاملة في منظار هذا التوجيه الثقافي ولكن اوروبا المعنية هي اوروبا الماضي لا اوروبا المستقبل ، بل لا اوروبا الحاضر ، بل هي اوروبا الماضي كما تصوره كتب اليسوعية والبعثات الثقافية الاستعمارية وهو نوع من اوروبا لم يقم اصلا في اي عصر من العصور .

وبكلمة فانه لم يسبق لحركة ان نظرت الى الانسان كمادة اولية تستطيع ان تصنعه كما تشاء ، دون ان تقيد بواقع اقتصادي او جغرافي او حقيقة موضوعية كما نظرت المارونية السياسية الى الانسان اللبناني

ونظرة المعلم الى تلميذه في اية مدرسة مارونية من مدارس المارونية السياسية هي نظرة تقوم على شيئية الفرد بخلاف انسانيته ، فالانسان هو الطائفة والكنيسة وارض الجبل ، واما الفرد فهو الشيء القابل للتسخير بشكل كلي وفقا لارادة المارونية السياسية . والمارونية السياسية تأخذ من الفرد الماروني وتعطي نفسها ، وهو يصغر وهي تكبر ، وكل ذلك بواسطة التوجيه الثقافي .

وبالفعل لم تنجح المارونية السياسية في بناء دولة او مؤسسات او روائع فكرية وعمرانية وغير ذلك ولكنها نجحت في تكوين العقل الملائم لها عند المواطن الذي ينسى كل عناصر التمايز داخل الجسم الماروني من موقع طبقي الى تحصيل ثقافي الى شروط التوظيف ليتذكر امرا واحدا هو انتماؤه الى الطائفة المارونية او الى « العنصر المتفوق » .

لقد كانت روما الفاتيكان وكانت اليسوعية في عظمة ما تنطويان عليه من تراث ثقافي وتكوين روحي واصول منهجية في العلم والفكر ، اقصى من ان

تستطيع المارونية الصمود امامها حين كان اتصالها بها في وقت مبكر استمر مع الزمن .

وقد كانت الذاتية المارونية في هذا المجال اشبه بابن الريف الذي هبط للمرة الاولى الى المدينة فسحرته بكل ما فيها من حقائق ومظاهر ، فلم يعد قادرا على التمييز وعلى الاختيار ، وتحول الى مجرد موضوع لها يتلقى ولا يعطي ، ويصدق لمجرد ان يقال له .

ولا يمكن ان تنفصل حياة المارونية السياسية وسيرتها الفكرية والعملية وقيمها ومفاهيمها واهدافها التكتيكية والاستراتيجية عن اليسوعية ، تلك المؤسسة التي عملت في لبنان بحيوية المؤسسة العالمية ذات الشعور بانها تخوض فيه اهم معاركها بل رمز وجودها التاريخي ، فهي تخوض على الساحة اللبنانية معركة جد كبيرة هي معركة الغرب مع الشرق ، ومعركة المسيحية مع الاسلام ، ومعركة اوروبا مع آسيا ومعركة الحاضر بل الماضي ضد الطموح الى التغيير .

والذي انتجته اليسوعية من نظريات وآراء ومعتقدات ومفاهيم في ما هو التاريخ العربي وما هو التاريخ اللبناني وما هي الحضارة الاسلامية وما هي الحضارة « اللبنانية » المارونية ، وما خرجت به من تشخيص لامراض الواقع اللبناني وادوية معالجة له قادر على سحق شعب صغير بكامله ، فلبنان كان ساحة الصراع ولبنان كان المختبر ولبنان كان شهادة النجاح في العمل والصدق في الدعوة .

وفي ما خلا بعض الاستثناءات اللامعة فقد شعرت اليسوعية ان عليها ان تهدم العالم العربي وهي تبني لبنان ، وشعرت ان عليها ان تخنق امكانية الولادة الاخرى في المولود الجديد ولم تفشل في ذلك بشكل عام .

وفي بيئة اليسوعية انتشرت الدعوة لاعتماد الحروف اللاتينية بدل العربية ، وفيها قامت الدعوة الى اعتماد « اللغة » العامية وفيها تم التنظير

لعدم قابلية العقل العربي للتطور ، وكون اللبناني وحده القادر على التفكير الحر في مشاكل العصر ، وفيها خرجت دراسات الاب لامانس الشهيرة التي كانت تنظر الى سوريا كلها على انها لبنان الاكبر ، فسوريا - الاب لامانس ليست في الحقيقة الا لبنان المارونية السياسية مطروحا بشكل اكثر تجديدا وخبثا وقابلية لمواجهة العالم العربي والاسلامي والعروبية « الاسلامية » .

ومن اطرف التراث اليسوعي في لبنان مقال كتبه الاب لامانس على اثر ظهور فكرة توسيع لبنان عام ١٩٢٠ وفيه حذر فرنسا من اصطناعية تجزئة سوريا ، ولكن مضمون المقال يشبه ان يكون : حذار انشاء لبنان الكبير فان بامكاننا ان نصنع لبنان الاكبر منه ، من سوريا الطبيعية كلها بكل فسيفسائها الطائفية والمذهبية والعنصرية ، وبكل اقلياتها الاجتماعية .

ومع ان الاب شيخو لا يرقى علميا الى مستوى الجبار الذي كأنه لامانس الا انه عمل جهده كاملا على صعيد اشعار المسيحيين اللبنانيين بالتفوق العنصري والفكري على العرب ، حاضرا وماضيا وذلك من خلال كتاباته المتواصلة عن شعراء النصرانية وغير ذلك .

ومن اليسوعية خرج الرجال ، لا الافكار والدعوات فقط ، فان اغلب الكوادر المارونية السياسية هي من خريجي اليسوعية وقلائل هم من لعبوا دورا في الحياة السياسية اللبنانية ولم يكونوا من خريجيها ، يتساوى في ذلك المسيحيون والمسلمون ، والمسلم اليسوعي هو جندي اكيد في قضية المارونية السياسية .

ويمكن القول ان اغلب الرؤساء والوزراء الذين تولوا شؤون الدولة اللبنانية واجهوا الامور العامة يسوعيا ، اي استلهموا المقاييس التي انشأتهم عليها اليسوعية ، وطلبوا الاهداف التي رسمتها لهم وكانوا أوفياء للتربية اليسوعية روحا واسلوبا ومنطلقا مع فارق وحيد هو فارق الجدية والحماسة الدعوية التي نجدها عند الراهب اليسوعي ولا نجدها عند رجل السياسة او الادارة اللبناني .

وبعد ان نشأت الدولة اللبنانية بل قبل ان تنشأ هذه الدولة اعتبرت اليسوعية نفسها مصنعا للرجال ومسؤولا عن امداد دولة لبنان بطبقة قادرة على الحكم والتناسل السياسي .

ويقول الجنرال كاترو في مذكراته ان رئيس اليسوعية الاب شانتور طلب من سلطات الاحتلال اقفال كلية الحقوق في دمشق لأنها تعطي طلابها ثقافة ضارة بالانتداب ولم تطاوعه سلطات الانتداب نفسها لأنها رأت في ذلك تطرفا غير معقول .

وبعد عشرات السنين وقف محامو لبنان من خريجي اليسوعية نفس موقف الاب شانتور من الجامعة العربية فاضربوا ستة اشهر ضد انشاء كلية حقوق عربية في لبنان .

وكانت الحجة يسوعية ايضا لأنها كانت تتحدث عن مستوى التعليم في حين ان الدولة تعترف بشهادات الدكتوراة من سويسرا وفرنسا حيث يأخذ الطالب الشهادة من دون ادنى مقابل علمي .

ولليسوعية ايضا يعود الفضل في نظام البكالوريا اللبنانية الحالي حيث يجد الطالب المسلم والفقير نفسه مضطرا للوصول الى البكالوريا ، اما عن طريق المدارس الطائفية الخاصة او المدارس التجارية البحتة او المدارس الحكومية غير الموجودة .

فاذا ذهب لنيل شهادة من مصر او سوريا اعتبر متعلما من الدرجة العاشرة وغير صاحب اهلية لتحصيل الرزق واحيانا متجاوزا للسيادة اللبنانية باعتبار ان الاشتراكية والعلم المجاني هما صاحبا الفضل في شهاداته .

وهجرة المسلمين والفقراء الى مصر وسوريا لاخذ الشهادات تكاد تكون وحدها الهجرة غير المشجعة من لبنان فالمفروض ان يبقوا في لبنان ويبقوا كما هم او كما تريدهم المارونية السياسية ان يكونوا .

ويأتي بعد دور اليسوعية دور معهد الحكمة الذي انشأته نزعة وطنية معادية للعثمانيين عند الطائفة المارونية واستمر مدة طويلة من الزمن يمثل احساسا مشروعا عند الموارنة بانهم طائفة اقلية مميزة وانهم قادرون ان يلعبوا في النهضة العربية دورا رياديا .

وفي الحكمة عاش تقليد من الاعتزاز بالاستقلال عن اي اجنبي كما عاش اعتزاز باللغة الغربية وآدابها وقدرة الموارنة على خدمة هذه اللغة وتلك الآداب .

واسماء كعبد الله البستاني وبشارة الخوري ووديع عقل وغيرهم تميز دور الحكمة عن دور اليسوعية وان كان هذا الدور قد بقي في اطار اشعار الموارنة بتميزهم فصب في النهاية مصب المارونية السياسية .

• اما جامعة الكسليك فتشكل طموحا مارونيا الى مواجهة تحديات الفكر العصري الوطني ولذلك تحولت حاليا الى دار التنظير للفكر الانعزالي اللبناني ، وفيها ولدت « جبهة الحرية والانسان » التي يوحي اسمها بانها جاءت لتنفي عن المارونية السياسية انها خلال سنتين من الحرب وضعت العصبية العمياء فوق كل القيم ، ومنها خرجت فكرة التعددية والكونفدرالية والحضارات وتوزعت في كراريس صغيرة عليها طابع التبشير العقائدي للمؤمنين بالمارونية السياسية وبلبنان الماروني ، ومنها خرجت ايضا بعض التطويرات الجميلة لموسيقى الطقوس الكنسية خصوصا بعد الخطوة الايجابية التي خطتها الكنيسة من اجل تعريب القداديس . وكان من مشاهد عظمة الثقافة العربية وفتوحاتها المستمرة دخول القداديس المارونية الى كنيسة مار بطرس بمناسبة الاحتفال بتقديس الراهب شربل .

وقد بنى الماروني السياسي رقم واحد شارل مالك « قصرا » للثقافة اعلن به قيام الانقسام الثقافي بشكل نهائي داخل لبنان ، متسلما المشعل من « الندوة

ملحق

اللبنانية » التي كانت ايام لبنان الواحد مركز نشاط مثقفي المارونية السياسية الا ان الحياء الوطني كان يلجم الندوة عن تبني فكر الانعزالية تبنيا كاملا .

لقد جعلت فكر ميشال شيحا ورينيه حبشي عنوانا لها وفكر رينيه حبشي وفكر ميشال شيحا لا يمثلان بالضبط ضيق المارونية السياسية بالتيارات والطوائف الاخرى في البلد .

وهي ان افسحت المجال في محاضراتها وندواتها لفؤاد افرام البستاني وخصوصا لادوار حنين الا انها لم تبقيها وحدهما في الساحة بل حافظت على لون من التوازن من خلال استضافة ضيوف عرب خارجيين او عرب داخليين .

المارونية السياسية ومسؤولية التخلف العزلي

تعيش المارونية السياسية جوا انقلابيا لم تعد تقبل فيه التراث الرسمي اللبناني الذي شاركت هي في صنعه ، فلا الميثاق بقي مقدسا عندها ولا التعايش بين الطوائف .

وقد فقدت القدرة على مخاطبة الطائفيات المختلفة الموجودة في لبنان تلك الحليفات الدائمات للمارونية السياسية ضد رياح التغيير الاجتماعي ، لانها بعد ان اشتركت في معارك عسكرية او سياسية مع اكثر الطوائف استمرت في السلم ترفض حتى الجلوس على مائدة مشتركة مع هذه الطوائف وتشترط ان يكون عنوان هذا اللقاء مبايعتها مسبقا على كل ما ترى من آراء في السياسة اللبنانية والعربية والخارجية ، ولو كانت هذه الآراء متناقضة مع مفاهيم النظام اللبناني نفسه .

وبسبب هذا التطرف وهذه « الانقلابية » خلقت المارونية السياسية ازمة لنفسها مع جهات عديدة كالمسلم المحافظ الذي يريد ان يتفاهم مع المارونية المحافظة ولكنه بالنظر لتطرفها لا يستطيع ولا يجد معقولا او ممكنا ان يمد يد التفاهم لها ، وكأي دولة عربية تحرص على اخراج المارونية من مأزقها ولكنها امام تحجر مواقف المارونية السياسية تضطر لنفض اليد بل كأميركا نفسها في بعض الحالات التي تصطدم بجمود مؤسسة موالية لها ، واخيرا كالسلطة اللبنانية ، اي سلطة ، مضطرة في آخر المطاف ان تتصرف على اساس ان في لبنان طوائف متعددة لا مجرد طائفة واحدة .

وهكذا فالمارونية السياسية الان اما ان تقفز قفزا الى اخذ السلطة في لبنان كاملة ـ بانقلاب فعلي يكون امتدادا لمذهبها الفكري الراهن ـ واما ان تتراجع .

والفرصة قائمة لجعل الموارنة ينتقلون من فكرة « وطن الطائفة الواحدة » الى « وطن الطوائف المختلفة » ـ هذه المحطة المحتومة على طريق لبنان الوطني المتحرر من الطائفية ـ بشرط واحد هو اقامة العمل السياسي الوطني اللبناني والقومي العربي على اساس فهم أعمق واصح للمارونية السياسية ، والضغط على الانظمة العربية لاعتماد استراتيجية سلمية ازاءها .

والمفترض في هذا العمل القومي كي ينجح ، ان يضع الحرص على الموارنة كجزء بارز من اللبنانيين والعرب حتى فوق مصلحة المعركة ضد المارونية السياسية نفسها اذا سلمنا جدلا ـ وهو غير وارد في الواقع ـ ان هناك امكانية لتضرر الموارنة من ضرب المارونية السياسية .

ان المؤسسة المارونية مع الانظمة العربية ظالمة ومظلومة .

ظالمة لأنها تحرج حتى الانظمة المتعاطفة معها ، بل هي مورطة لهذه الانظمة وكاشفة لها في معارك وسياسات ليس من مصلحة هذه الانظمة ان تخوضها ، ولأن هذه الانظمة تبدأ عادة بعرض الصداقة للمارونية السياسية كخيار اول ، فاذا لم يتم التفاهم بينها وبين المارونية السياسية لجأت عندئذ الى خصومها كخيار ثان .

وهي مظلومة لأن انظمة عربية تكتفي احيانا من القضية العربية كلها باظهار تناقضها مع المارونية واعلان جهادها ضدها كما فعل الحاكم السوري خالد العظم في يوم من الايام حين جعل من الهجوم على المؤسسه اللبنانية دغدغة للغرائز وصرفا للاذهان عن المشاكل الداخلية .

والواقع ان التعاطي العربي والوطني اللبناني نفسه مع ظاهرة المارونية السياسية كان في اغلب الاحيان يحمل بطبيعته بذور فشله .

فالفكر القومي العربي كان يستغني عن التحليل والفهم وابتداع منهج للنظر والتصرف بادانة الموارنة بالتعصب ومهاجمة المؤسسة المارونية بالعمالة للاجنبي والنوم في حضن الام الحنون : فرنسا سابقا واي دولة غربية قوية حاليا .

والفكر الماركسي كان يصر بصورة عامة على ذلك التحليل المبسط الذي لا يجد مكانا لظاهرة تبدو للوهلة الاولى غير ممكنة التفسير بالمعايير الطبقية الجافة فيسارع الى القول ان المارونية السياسية ليست غير بنت عادية كسائر بنات الناس للامبريالية والرأسمالية .

اما تاريخ الانظمة العربية مع هذه الظاهرة فهويشكل بذاته ظاهرة فحتى تلك التي تعاديها تتصرف وكأنها تقدم لها خدمات مجانية وغير مجانية توحي بان النظام العربي المخترق هو ايضا يسوس العصبيات والانفصاليات لا يفهم بل لا يريد ان يفهم ، او حتى يتفهم بعطف تركيبة هذه الظاهرة ولم يخطىء كثيرا ذلك السياسي اللبناني الذي قال مرة امام سفير الولايات المتحدة الاميركية المتسائل عن عدد الموارنة ، ان عدد الموارنة هو مائة مليون،ملمحا الى موقف كثير من الانظمة العربية في الحرب اللبنانية الاخيرة .

ويكاد يكون لكل نظام عربي طريقته في ارتكاب الاخطاء على الساحة اللبنانية . منها الموقف المحافظ سياسيا الذي يعرف ان المارونية السياسية حليفة له ولحكمه فيدعمها بذرائع متعددة تتراوح بين ان الدعم هو للشرعية الحاكمة ضد الفوضى او انه للضعيف المستجير ضد القوي .

ويتميز موقف الحكومات العربية بشكل عام بطابعين متناقضين نابع كلاهما من مصلحة هذه الحكومات الخاصة ، الاول يضخم خطر المارونية

السياسية الراهن ويستعجل او يتظاهر الاستعجال في حربها وغايته الكسب الشعبي وادعاء التنزه بصورة غير مباشرة من الامراض اللبنانية ، وتخاض هذه الحرب عادة بشكل واساليب واوضح فيها عدم الحرص على النصر .

والثاني مهون من موضوع المارونية السياسية تهوينا غير علمي معتبرا هذه المشكلة آخر مشكلة يجوز للعرب الالتفات اليها لأنه في زعمه عندما يقوى العرب فالمشكلة تنحل من ذاتها .

ومصدر هذا السلوك اما الجهل او الانصراف الى الهموم القطرية ، او الدفاع لأمر او آخر عن المارونية السياسية .

وفي الموقف العربي من المارونية السياسية يكاد اسلوب المقاومة يكون اهم من مبدأ المقاومة نفسه ، ويكاد المستوى في الادراك والتصرف يكون هو الشرط الاول والاخير .

وليس العنف اسلوبا مضمون الاثر دائما لأن العنف حين لا يكون دفاعيا يجمع الموارنة وراء المارونية السياسية ، وفي كل الحالات فاتخاذ عقوبة في وجه لبنان ككل او الموارنة ككل ردا على تصرف للمارونية السياسية منزلق كادت تنزلق اليه دول عربية عديدة .

وقد يحسن ان تنفتح الدول العربية احيانا على المارونية السياسية نفسها من اجل كسب الموارنة لا المارونية السياسية غير القابلة للكسب تكوينا

وليس من اعتراض على ان تتدخل الدول العربية تدخل المصلح اذا لم يكن مصدر هذا التدخل انزعاجا من الحركة الشعبية في لبنان او انكارا لاهمية المعركة الداخلية اللبنانية او اعتبارا ان المارونية السياسية هي في النهاية اهون الشرين .

واقل ما يقال في اخطاء التدخل العربي في شؤون لبنان ان مصدرها نظرة الى موضوع التدخل في شؤون لبنان لا تختلف عن نظرة اي دولة اجنبية تريد لها حصة في ساحة رئيسية من ساحات المشرق العربي .

وأهمية هذه الساحة ناتجة عن اعتبارات متعددة منها وجود المقاومة الفلسطينية في لبنان والحرية النسبية للشارع الوطني فيه وخصوصا ذلك الشيء من الغربية المطبوع به النظام اللبناني الذي يضع تحت الاضواء اية هزيمة او نصر فيه ، فالمهزوم في لبنان كأنما هزم في اي عاصمة من عواصم اوروبا من حيث الانكشاف والضجيج ، والمنتصر في لبنان كالجالس تحت قوس النصر في شارع الشانزليزيه ، ينتظر جبينه اكليل المكافأة والتمجيد .

على ان الحليف الدائم والاخ الشقيق للمارونية السياسية هو في البداية والنهاية ذلك التخلف في منطقة المشرق العربي الذي كان تاريخيا من عناصر التأسيس لظاهرة المارونية السياسية .

والمارونية السياسية هي باحد وجهيها صنع الارادة والتخطيط والمصلحة الأجنبية الا انها ـ في وجهها الآخر ـ وليدة الانحطاط في الدولة العثمانية والتخلف في المجتمع العربي ولعل الوجه الثاني هو الأهم . فقد خرجت المارونية السياسية من صلب المجتمع الشرقي والعثماني وبينهما ما بين المورث والوارث، فالاول هو مبرر وجود ، وهو الناقص الذي لا يتم كماله الا بالآخر وهو المقوي بقدر ما هو الخصم الشكلي .

فالمارونية السياسية تشير باصبعها الى مظاهر الانحطاط في الدولة العثمانية من عجز وانغلاق وتعصب وتخلف لتقول : اما انا او هذا البديل ! وبالبديل تعني لا هذه المظاهر فقط، بل تعني استحالة ولادة الامة العربية ونهوضها من تحت هذه الاثقال . وهي لا تعني الدولة العثمانية بذاتها كمخلوق سياسي محدد وانما تعني مبدأ الوحدة في المجتمع العربي وقابلية العرب للمعاصرة ، وقدرة الاسلام على الانفتاح في وجه « الآخر » الغربي ، او

الشرقي او المحلي ، سواء أكان هذا الآخر تراثا ثقافيا او عنصريا او دينيا او حتى مصالح حيوية .

اما الدولة العثمانية في الماضي والاوضاع المتخلفة المحيطة بالموارنة ، بشكل عام ، فهي الاخرى تشير باصبعها الى هذا المولود في المشرق العربي لتقول : إما انا واما هذا البديل ، وتعني تشكلا طائفيا معاديا ، في طبيعته الاولى ، للعروبة والاسلام ، عنصريا ، فاشيا ، غربيا بالالتحاق لا بالانتماء ، يأخذ نشوته من العداء لمحيطه ويغذي نفسه بالاخطار الموهومة في محيطه وبالضمانات الموهومة في العالم الغربي ، فهو يسمي نفحات التغيير والثورة على الذات والتجدد في الوطن العربي اخطاراً ، ويسمي نزعة التسلط والاستعمار او الاستغلال في العالم الغربي ضمانات .

ان المارونية السياسية تسمي اي نظرة جديدة الى العلاقات بين اقليم عربي واقليم آخر ، وبين طبقة وطبقة ، عودة الى الغرق في الانحلال الحضاري والاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي الذي عرفته اواخر ايام السلطنة العثمانية ، ولكنه بقي في نظر المارونية السياسية المثل الدائم الازلي الابدي للحقيقة العربية .

ومن بين كل ما عرف العالم العربي وما سيعرف من نزعات تغيير ، تخص المارونية السياسية التوجه نحو الوحدة بأعمق حقدها ، وتعتبره ـ قبل اي شيء آخر ـ العدو الحقيقي الخطر .

وهكذا فبين المارونية السياسية والامراض القائمة في العالم العربي علاقة تناسلية قوامها ان يولد الاول الآخر باستمرار ، كما ان بينها وبين هذه الامراض علاقة تواطؤية قائمة على تصوير الواحد للآخر على انه البديل الوحيد عنه والخصم الوحيد له .

وحين تسلم المارونية السياسية بحق العالم العربي في التطور والتجدد

والإستقواء تعود لتقول : ان ذلك على فرض مشروعيته وضرورته مستحيل ، لأن التخلف والانحلال والتجزؤ والطائفية قدرات لا قبل لاحد بمقاومتها ! فلو اجتمع العالم كله لانقاذ العرب لما استطاع !

وفي المقابل ، حين يسلم التخلف العربي بشر التشكل السياسي للطائفية المارونية وضرورة الحاق الهزيمة بها ، يعود ليقول : ان المارونية السياسية مرض غير قابل للمعالجة وكل مسيحي ماروني سياسي ، بل كل لبنانيَ « ماروني سياسي » والمارونية السياسية تعني العلم الذي لا حد له ، والشجاعة التي لا حد لها ، والقدرة على التصرف التي لاحد لها ، وهي التي تحكم الفاتيكان ، وتحكم فرنسا وايطاليا والمانيا من خلال الفاتيكان بصفتها بلادا ذات اكثرية كاثوليكية وتحكم الولايات المتحدة عن طريق الاقلية الكاثوليكية التي فيها . فهي تختلف عن اسرائيل ، بمعنى انها لا احق منها بالبقاء ، فقط ، بل اقدر منها على هذا البقاء .

الخيار ، في نظر التخلف العربي والمارونية السياسية ، او المعركة المستحيلة ـ اذا شئت ـ هو بين بطلين وجبارين : فالمارونية السياسية تعطي الاوضاع العربية العاجزة في كل شيء الا في مكافحة التقدم قدرة بطولية مطلقة ، والتخلف العربي يعطي المارونية السياسية التابعة كليا للقوى الغربية العالمية قدرة مطلقة على مكافحة العروبة والتقدم ، فيصورها ـ هي الاخرى ـ بمظهر البطل الكامل .

والواقع ان « البطولتين » معا تخلقان امكانية امتداد للمارونية السياسية خارج حدود لبنان ، لتصبح من خلال القدوة عامل تكتيل « مؤسسة كبرى » لم تولد بعد ولكنها ممكنة الولادة اذا استمرت الاوضاع على ما هي عليه في لبنان وفي اسرائيل وفي الدول العربية ونعني بهذه « المؤسسة الكبرى » مسيحية معينة على امتداد العالم العربي تتكون على اساس الصورة المارونية السياسية وتقتات بغذائها نفسه ، عربيا كان ام اجنبيا ، ذاتيا ام

واردا من مجتمع الاكثرية الاسلامية العربية ، وتستهدف نفس الاهداف التي يهدف اليها الكيان الماروني السياسي .

فقد استطاعت المارونية السياسية ، بالتواطؤ مع التخلف العربي ، ان تخلق حول ذاتها هالة بطولة قادرة على الاشعاع والفعل في الاوساط المسيحية العربية المصرية والسورية والفلسطينية والاردنية والعراقية .

المسيحيون العرب

ومع ان الاحراج الذي خلقته المارونية السياسية في هذه الاوساط اكبر من الاعجاب ، والنقمة عليها في هذه الاوساط تزيد عنها في الكثير من الاوساط العربية الاسلامية ، الا ان طرح البذرة على ارضية العلاقات الاجتماعية العربية الحالية ، باشكالها التكنوقراطية والاقطاعية والبرجوازية الكوزموبوليتية ، يشكل امكانات خطرة لتوسع النموذج اللبناني .

واذا كانت اكثرية المسيحيين العرب تنتمي الى كنائس ذات تقاليد شرقية ، بل عربية ، عريقة .

واذا كانت اكثرية المسيحيين العرب محصنة باكثر من عامل ضد النموذج الماروني السياسي . الا ان اقلية من المسيحيين العرب اشد بعدا ، من الناحية العنصرية ، من الموارنة ، عن المجتمع العربي والاسلامي ، فبعض هذه الاقليات ذو خلفية عنصرية وثقافية ولغوية غير عربية وان كانت شرقية .

ان المسيحية السياسية في العالم العربي مشروع في طور التكوين ، والمراهنة عليه في اوساط الاستعمار والرجعية العالمية والرجعية العربية حقيقة ملموسة فهذه القوى تغزل من الانتماء الواحد الى الدين المسيحي سجادة علاقات علنية وخفية تقوم على الافادة والاستفادة الاقتصادية والثقافية والادارية والاجتماعية والسياسية ، وان يدا ما تكافىء كل من يتقدم لنيل

مصلحة مادية او مكسب او طرح رأي على اساس انتمائه لمؤسسة مفترضة هي « مؤسسة المسيحية السياسية في العالم العربي » فالسياسي المسيحي العامل على اساس ذلك هو نجم في المسيحية السياسية في العالم العربي والموظف الكبير والاستاذ العلامة والناقد والفيلسوف. والمسرحي والموسيقي وصاحب الصوت الجميل والعضو المتميز في المؤسسات الدولية ، والحائز على الرتبة العالية في العلم او الفن ، والحائز على الجائزة العالمية ، فضلا عن كبار رجال الدين ، هم نجوم لا في المجتمع العربي ككل ، بل ايضا واولا في المؤسسة المسيحية في العالم العربي .

وتبرز حقيقة هذه المؤسسة بتعامل الرجعية العربية والعالمية معها بما يشبه الاعتراف الرسمي بها كيانا سياسيا متميزا بل تبرز حقيقة هذه المؤسسة برد فعل المسيحيين العرب عليها حين نجد قسما منهم يخرج في بعض الحالات من انتمائه الديني خروجا مطلقا ، وفي بعض الحالات يتطهر حتى القداسة ، وفي حالات اخرى يتطرف حتى اقصى المياسرة فلا يقبل تيارا سياسيا رائجا ، وفي حالات يتقبل الحقيقة العربية على اساس انها حقيقة عربية اسلامية لا يختلف في ذلك عن اي عروبي مسلم ، بل يتقدمه .

وهكذا تقوم ظاهرة صحية هي ظاهرة الردة على ولادة ونمو « المؤسسة المسيحية السياسية في العالم العربي » من قلب الوجود المسيحي العربي ، وابرز نموذج عنها هو المطران غريغوار حداد وغيره من الطليعيين داخل الكنيسة المسيحية الغربية نفسها ، فضلا عن الطليعيين المسيحيين خارج الكنيسة وفي قيادة الامة العربية على طريق الوحدة والحرية وتحرير فلسطين .

فهرس

صفحة


مركز "السفير" للمعلومات
السعر
٥ ليرات
لبنانية
أو مايعادلها